الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

الإبريز في فقه التغيير الحضاري
في ضوء الكتاب العزيز
- ظاهرة الإسراف نموذجا -

تأليف
الأستاذ الدكتور
حامد محمد حامد عثمان
أستاذ الدراسات العليا للتفسير وعلوم القرآن
بكلية الشريعة والأنظمة – جامعة الطائف

Al Ebriz in Jurisprudence of Civilization Change in the Light of the Holy Quran
– Extravagance Phenomenon as a Model –

ملخص البحث

تعالج صفحات البحث مشكلة فقه وإمكانية التغيير والإصلاح على المستوى الحضاري فيماحكاه القرآن الكريم عن بعض الأعمال التي من شأنها أن تحقق الانهيار الحضاري التام للأمة الإسلامية ، وهي ظاهرة الإسراف العريضة في التأثير والتأثر والتي تشمل الفرد والأسرة والمجتمع بل والأمة قاطبة ، والتي من شأنها أن تسبب الفساد الكبير في الكون والحياة .

Abstract

The research pages dealt with Problem the Jurisprudence and possibility of change and reform on the level of civilization narrated by the Holy Qur'an for some work, which could lead to a complete collapse of the Islamic Civilization.

The issue, subject of our study, is the Phenomenon of Extravagance , the wide effect is has on individual , family, society and on the whole Islamic nation and the huge corruption it may cause to life and universe.

The extravagance phenomenon widely in impact and influence, which include individual, family and society, but the whole nation, that would cause large-scale corruption in the universe and life.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فمما لاشك فيه أن واقع الأمـ ـة الإسلامية اليوم يحكي حالةً من فوضى الإسراف، وفساداً اجتماعياً وأخلاقياً كبيراً وخطيراً ، وفي الوقت نفسه يحكي حالة من الضعف والانكسار؛ الأمر الذي يجعل الأمة تقف أمام تحديات حقيقية لحالات من الارتباك النفسي ، والصراع الفكري ، ولا شك إن أرادت هي – حينئذ – أن تفيق من غفلتها أو تستيقظ من رقدتها ؛ فقد تغيب الرؤى والأفكار المتبصرة والتي يفترض استحضارها كوسائل للدفاع عن شرف الأمة وحماها ، او تغيب –أحيانا– عن عمد لأنها؛ محكومة بحسابات معينة وتخضع لرغبات ودوافع شتى.. وازاء هاتين الحالتين وهما: الغياب والتغييب؛ يظهر من هنا وهناك بريق من الضوء – يتخلل ضمير الغيورين من أفراد الأمة؛ لتنتفض على تلك الفوضى الجامحة، والانكسار المخزي، والفساد المدمر– يتمثل في طرح مشروع إصلاحي حضاري ، أو استبصار نقدي.

ولعلنا نكون منصفين إن قلنا : إن هذا المشروع الإصلاحي التنموي ؛ تنبثق رؤاه وتتحدد رسالته وأهدافه، وتتضح معالمه من خلال المرجعية الإسلامية السامية المتمثلة في آي الذكر الحكيم والسنة النبوية المطهرة ، وهما باعتبارهما منبعان رئيسان للفكر الإسلامي ومؤسسان للحضارة الإسلامية ؛ يدعوان بكل وضوح إلى الإصلاح والتعمير ، ويندد ان بالفساد والتدمير ، ولا عجب في ذلك ،فكما أنهما تربية للنفوس وتزكية للقلوب نجدهما نظام حياة ،يصنعان الحضارة ويرتقيان بالإنسان إلى أسمى مراتب الرقي الإنساني ويدفعان بالشعوب إلى أعلى درجات التمدن والسمو.

مشكلة البحث وأهميته:

وتتحدد مشكلة البحث فيما حكاه القران الكريم عن بعض الأعمال التي من شأنها تحقق الانهيار الحضاري التام وتسبب الفساد الكبير في الأرض كما عبرت عنه بعض الآيات بـ (الإسراف) قال تعالى " ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى

ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم: ٤١ ،وقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الدخان: ٣١ وبما أنها تتحدّث عن الإفساد على مستوى الأرض وهو مستوى عريض من التأثير، فإنَّ الإسراف الذي يؤثّر ذلك التأثير، لن يكون كالإسراف المتبادر على المستوى الشخصي، بل هو إسراف على المستوى الحضاري ، ولكي تتضح هذه العلاقة التأثيرية العريضة وضوحا علميا دقيقا قائما على الحجة والبرهان كمحاولة للوصول الى معرفة أبعادها ، ومدى خطرها على الأمة ومن ثم أخذ التدابير اللازمة والحيطة والحذر منها ؛ لابد وأن تتوفر هناك ملكة فقهية قوية ، وعقلية علـ ـمية استنباطية مستنيرة ، وخطى مسددة ، ويحف ذلك كله توفيق من الله تعالى ، وهذا ما نبتهل إلى الله تعالى طامحين في الوصول إليه بإذنه تعالى . من خلال الإجابة على التساؤلات التالية :

تساؤلات البحث :

س١- ما هو حد الإسراف على المستوى الشخصي وعلى المستوى المجتمعي ؟

س٢- ماهي حدود العلاقة بين الإصلاح وبين النمو الحضاري ؟ وما هي حدود العلاقة بين الإسراف الحضاري وبين التدمير الحضاري؟

س٣- ما مفهوم التغيير ؟ وما هي آلياته ؟

من هنا تأتي أهمية الكتابة في هذا الموضوع المهم والموسوم بـ (الإبريز في فقه التغيير الحضاري في ضوء الكتاب العزيز- ظاهرة الإسراف نموذجا -) مؤملاً تحقيق الأهداف التالية :

أهداف البحث :

١- إحياء القيم الحضارية في القرآن الكريم في مجال الإصلاح والتعمير وبيان أهميتها .

٢- تعميق وترسيخ مبدأ ثقافة التغيير والتنمية والإصلاح في المجتمع المسلم .

٣- التعرف علي معايير الوسطية في الطبيعة الإنسانية من منظور قرآني حيث أحاط الإسلام بجميع جوانب الإنسان الجسدية والعقلية والروحية ، وسائر

علاقاته، بل ونظم مسيرة حياته كلها .

٤- الوقوف على الأسباب والعوامل التي تؤدي إلي الإسراف والإفساد في الأرض.

٥- اكتساب بعض الأسلحة اللازمة للتصدي لهذه العوامل المؤدية الى التدمير الحضاري.

منهج البحث :

وتقتضي طبيعة هذا البحث أن نسلك فيه المنهج الوصفي القائم على الاستقراء والتحليل والاستنباط في القرآن الكريم ومن ثم فقه الدلالات والأبعاد المستنبطة وربطها بالعوامل والأسباب المحيطة بالواقع المعيش ، وتعزيز ذلك كله بالأحاديث النبوية الشريفة .

خطة البحث :

ينقسم البحث الى مقدمة ، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة .

اما المقدمة : فتشتمل على أهمية الموضوع ومشكلة البحث ،وأهدافه ، وتساؤلاته ، ومنهجه ، وخطته .

التمهيد : وفيه التعريف بمصطلحات البحث وتحته فروع :

الفرع الاول : المقصود بالإبريز .

الفرع الثاني : التعريف بالفقه لغة واصطلاحا.

الفرع الثالث : مفهوم التغيير الحضاري وتحته مسألتان :

المسالة الاولى : مفهوم التغيير لغة واصطلاحا .

المسألة الثانية : مفهوم الحضارة لغة واصطلاحا .

المسالة الثالثة : مفهوم المركب الوصفي (التغيير الحضاري).

المسألة الرابعة : أسس الحضارة في الاسلام .

الفرع الرابع : مفهوم الاسراف لغة واصطلاحا

الفرع الخامس : التعريف بالألفاظ ذات الصلة : (التبذير – التقتير- القوام ...الخ)

المبحث الاول : حدود الاسراف وتحته فروع :

الفرع الاول : حدود الاسراف على المستوى الفردي

الفرع الثاني : حدود الاسراف على المستوى المجتمعي

المبحث الثاني : اثر الاسراف على التعمير و النمو الحضاري وتحته فروع :

الفرع الاول : عوامل النهوض الحضاري في الاسلام

الفرع الثاني : عوامل الانهيار الحضاري في الاسلام

الفرع الثالث : بيان أثر الاسراف في تخريب وتدمير حضارة الأمة

المبحث الثالث :دراسة تحليلية لنماذج قرانية لبيان أثر الاسراف على السقوط الحضاري ، وآليات التغيير و طرق المعالجة وتحته مطالب :

المطلب الأول : الإسراف في الجانب الجسدي وتحته فروع :

الفرع الاول : الغذاء

الفرع الثاني : الجنس

الفرع الثالث : النوم

المطلب الثاني : الاسراف في الجانب العقلي وتحته فروع :

الفرع الأول : مظاهر الاسراف والانحراف العقلي

الفرع الثاني : عوامل تحقيق الوسطية العقلية .

الفرع الثالث : ضوابط تحقيق الوسطية العقلية .

المطلب الثالث : الاسراف في الجانب الروحي وتحته فروع .

الفرع الأول :مظاهر الإسراف في الجانب الروحي وتحته مسائل :

المسألة الأولى :الغلو – التطرف – التفريط

المسألة الثانية : الإرهاب

الفرع الثاني : مظاهر تحقيق الوسطية الروحية وتحته مسائل :

المسألة الأولى :معايير الوسطية في الجانب العقدي .

المسألة الثانية : معايير الوسطية في الجانب التعبدي ..

المطلب الرابع : الإسراف في جانب المال وإدارة الإنفاق. وتحته فروع :

الفرع الاول : الاسراف في النفقة على النفس ومن يعول

الفرع الثاني : الاسراف في مال اليتيم

الفرع الثالث : التطفيف في المكيال والميزان ، واحتكار السلع.

المطلب الخامس : **الإسراف في جانب الأخلاق والسلوك** . **وتحته فروع** :

الفرع الاول : اللوطية

الفرع الثاني : الزنا

الفرع الثالث : قذف المحصنات

الفرع الرابع : الفتنة وما يتبعها

المطلب السادس : **الإسراف في جانب الحروب والقصاص** **وتحته فروع** :

الفرع الاول : الاسراف في القصاص

الفرع الثاني : الحرابة والسرقة

الفرع الثالث : نقض العهود ، والخيانة ، والاعتداء بالحرب.

المطلب السابع : **الإسراف في جانب السياسة والحكم** . **وتحته فروع** :

الفرع الاول : اهمال الشورى

الفرع الثاني :الحكم بغير ما انزل الله

الفرع الثالث : الاستبداد والطغيان والبطش

الخاتمة : **وفيها نتائج البحث وتوصياته**

الدراسات السابقة

انطلاقا من أدبيات البحث العلمي التي تنص على أن الدراسة التي يقوم بها الباحث ينبغي أن تتقاطع جوهريا مع الدراسات السابقة وأن يكون موضوعها ذا علاقة مباشرة مع موضوعه أقول : لم أقف على دراسات سابقة مستقلة تحدثت عن (فقه التغيير الحضاري في ضوء القرآن الكريم – ظاهرة الاسراف نموذجا –)

غير أنه توجد بعض الدراسات السابقة تحدثت عن الاسراف في القران الكريم دراسة موضوعية لكنها بعيدة عن مجال دراستنا الحالية من حيث اختلافها معها في خطة الدراسة، وأهداف البحث ،ومنهجيته العلمية ، ودواعي الدراسة.

والبعض الآخر تناولها في مجال الفكر الإسلامي بوجه عام إما في صورة مقال مختصر وإما دراسة ربما جاء الحديث عنها من جهة تكييف الحكم الفقهي فيها دون التحليل للنصوص القرآن الكريم . كان هذا البيان على جهة الاجمال واليكم التفصيل وهو على النحو التالي :

١- التبذير والاسراف فى ضوء القران والسنه للشيخ اسماعيل عطية وهو مقال على شبكة التواصل الاجتماعي فيس بوك :

https://www.facebook.com/ismailmohamedatya

وهو مقال رائع و مختصر يقع في حدود ثلاث صفحات تقريبا وكما نلاحظ أساليب المقالات الادبية التي تنحو منحى الاختصار وتقديم الفكرة بشكل موجز ومن ثم فهي تختلف عن بحثنا شكلا وموضوعا .

٢– الاسراف في ضوء القران الكريم دراسة موضوعية د / محمود هاشم عنبر بحث محكم ومنشور بالجامعة الاسلامية بمدينة عزة – بفلسطين– المجلد ١٩ العدد الاول عام ٢٠١١ م

والبحث يقع في حوالي (٣١ صفحة) تقريبا وهو يختلف تماما عن بحثنا الحالي في شكله ومضمونه حيث إن منهج بحثنا الحالي ونوع الدراسة فيه قائمة على المنهج الوصفي القائم على التحليل والاستنباط والوصول الى النتائج وربطها بالواقع المعيش بينما الدراسة الحالية

قائمة على الدراسة الموضوعية وهو بحث موجز اقتصرت الدراسة فيه على تصنيف أنواع الاسراف المذكورة في الكتاب العزيز والاستدلال عليها فحسب دون تحليل أو فقه لهذه النصوص ومن ثم كانت الدراسة السابقة مجرد دراسة نظرية كما تختلف ايضا عن دراستنا الحالية من حيث خطة البحث وأهدافه فمثلا خطة البحث السابق كانت على النحو التالي : المطلب الأول : معنى الإسراف لغة واصطلاحاً ، وفيه:

أولاً : معنى الإسراف لغة.

ثانياً : معنى الإسراف اصطلاحاً.

ثالثاً : العلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية.

المطلب الثاني : أسرف ومشتقاتها في السياق القرآني ، وفيه:

أولاً : أسرف ومشتقاتها في الآيات المكية.

ثانياً : أسرف ومشتقاتها في الآيات المدنية.

المبحث الثاني : صور الإسراف ونماذج من المسرفين في ضوء القرآن الكريم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : صور الإسراف في ضوء القرآن الكريم ، وفيه:

أولاً : الإسراف في النفقة.

ثانياً : الإسراف في الزكاة والصدقات.

ثالثاً : الإسراف في القتل.

رابعاً : الإسراف في مال اليتامى.

المطلب الثاني : نماذج من المسرفين في ضوء القرآن الكريم ، وفيه:

.أولاً : قوم نبي الله لوط

ثانياً : فرعون وملؤه.

ثالثاً : بنو إسرائيل.

المبحث الثالث : عقوبات المسرفين الدنيوية والأخروية.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : عقوبات المسرفين الدنيوية ، وفيه:

أولاً : عدم هدايتهم وإضلالهم.

ثانياً : ضنك عيشهم.

ثالثاً : تزيين أعمالهم لهم.

رابعاً : إهلاكهم واستئصالهم.

المطلب الثاني : عقوبات المسرفين الأخروية ، وفيه:

الإسراف في ضوء القرآن الكريم

أولاً : حشرهم يوم القيامة عمياناً.

ثانياً : المسرفون هم أصحاب النار.

الخاتمة : وتشتمل على أهم النتائج التي سيتوصل إليها الباحث.

٣- بحث مشكلة السرف في المجتمع المسلم وعلاجها في ضوء الإسلام للدكتور / عبد الله ابراهيم الطريقي وهو محكم ومنشور بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية – عام ١٤٢١ هـ وكانت خطة البحث على النحو التالي : تمهيد وخمسة مباحث وخاتمة . أما التمهيد فعن وسطية الإسلام .وأما المباحث فهي كالآتي :

الأول : في مفهوم السرف .

الثاني : السرف في نصوص القرآن والسنة وكلام أهل العلم والحكمة .

الثالث : أقسام السرف ومجالاته .

الرابع : الآثار السلبية للسرف .

الخامس : علاج مشكلة السرف .

وأما الخاتمة : فجاء التركيز فيها على ذم التكلف وبيان خطره .

وهذه الدراسات كما رأينا تخطيطها بعيدة تماما عن دراستنا الحالية من حيث الأهداف، ومشكلة البحث وتساؤلاته، ومن حيث الخطة البحثية، ومن حيث المنهج المتبع في الدراسة ، إذ أن الدراسة في البحث الاول موضوعية وهي من النوع الموضوعي الوجيز القائمة على التنظير دون التحليل بينما دراستنا الحالية قائمة على المنهج الوصفي التحليلي

القائم على فقه واستنباط الدلائل والابعاد الفكرية من الآيات الكريمة مع ربطها بالواقع الحياتي .

والدراسة في البحث الثاني لم تكن كذلك مقتصرة على الكتاب أو السنة وإنما جاءت عامة في الفكر الاسلامي مما يؤكد على اختلافها مع دراستنا الحالية شكلا وموضوعا فضلا عن الخلاف الحاصل بينهما من حيث الأهداف، ومشكلة البحث وتساؤلاته، ومن حيث الخطة البحثية، و المنهج المتبع في الدراسة

ولكن في الجملة لا يمكن الاستغناء عن هاتين الدراستين العظيمتين فهما ولا شك من المراجع المهمة التي يمكن الاستئناس بها في دراستنا الحالية .

٤- كتاب فقه التغيير عند مالك بن نبي لعبد اللطيف عبادة ، طباعة دار عالم الافكار تعرض مؤلفه من خلاله إلى ابراز المحاولة الرائدة للمفكر الشهير مالك بن نبي في فلسفة التغير و الثورة ، هذه الفلسفة التي ارتبطت حسب الكاتب بأصول سلفية سليمة و تمكنت من إبراز الكثير من عيوب المجتمع الإسلامي المعاصر و تناقضاته التي تكف نشاطه و تشل فاعليته. وانظر الرابط : Copy the BEST Traders and Make Money (One Click http://ow.ly/KNIC وهي دراسة كما ترى دراسة نظرية فلسفية بحتة بعيدة تماما عن دراستنا الحالية وإن كانت من الاهمية بمكان كمرجع أصيل من مراجع دراستنا الحالية خاصة في تأصيل الجانب النظري من البحث .

٥- كتاب أبحاث في سنن التغيير في النفس والمجتمع د/ جودت سعيد تقديم مالك بن نبي موجود ضمن أرفف مكتبة د خليل الحدري الاليكترونية ، وهذا الكتاب تدور صفحاته كما يقول مؤلفه " لقد كان جهدي كله في هذا الكتاب ينصب على بيان أن وظيفة تغيير ما بالنفس هي وظيفة الإنسان . وتفسير الآية التي هي عنوان الكتاب ، كان يدور حول هذا الأساس ويقصد قوله تعالى " إنَّ اللَّه لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ الرعد :١١ " وهي دراسة كما نر

بعيدة أيا عن دراستنا الحالية وإن كانت معدودة ضمن مراجعنا الاصيلة في هذا البحث

الدراسة الحالية في ضوء الدراسات السابقة :

وهكذا كما رأينا جميع الدراسات السابقة :

إما أنها تناولت الموضوع بشكل نظري عام في مجال الفكر الاسلامي عموما دون التقيد بمنهج الكتاب أو السنة .

وإما أنها تناولتها في ضوء القران الكريم لكن كانت الدراسة فيها موضوعية موجزة وليست تحليلية كما سبق أن أسلفنا فضلا عن اختلافهما من حيث الأهداف، ومشكلة البحث وتساؤلاته، ومن حيث الخطة البحثية، و المنهج المتبع في الدراسة ، والمهم أنها جميعا جاءت بعيدة عن مجال الدراسة التحليلية العميقة للنص القرآني . الأمر الذي يجعلنا نقول :

إننا بحاجة ماسة وملحة إلى دراسة هذا الموضوع دراسة وصفية تحليلية عميقة في ضوء النص القرآني الأمر الذي يكسب الموضوع مزيدا من التأصيل العلمي والتأطير المرجعي حيث إن القرآن الكريم هو أساس الحضارة الإسلامية ورمز مرجعيتها وسبيل رقيها وإبداعها وعنوان تميزها وهذا الطرح هو ما خلت منه المكتبات الإسلامية والعربية . فدراستنا ولا شك فيها إضافة جديدة في مجال البحث العلمي، وتعد دراسة مبتكرة على الساحة العلمية في مجال الدراسات القرآنية خاصة والفكر الإسلامي عموما.

التمهيد : وفيه التعريف بمصطلحات البحث وتحته فروع :

الفرع الاول : المقصود بالإبريز .

الإبريز : وذهب إبريز وإبريزيٌّ بكسرهما : خالص . قال ابن جني : هو إفْعيل من برز والهمزةُ والياء زائدتان . وقال ابن الأَعرابي : الإبْريز : الحلْي الصافي من الذَّهب وهو الإبريزي . (١)

الفرع الثاني : التعريف بالفقه لغة واصطلاحا.

الفِقْه في اللغة: الفهم، يقال: فَقِه (بكسر القاف) الرجل، يفقَه (بفتحها): فَهِم، يفْهم. ومنه الآية: { تُسبِّحُ لَه السَّماواتُ السَّبع والأَرض ومن فيهنَّ وإن مّن شيءٍ إلاَّ يسبِّح بحمْده ولَكن لاَّ تفقهون تَسبيحهم ... } الإسراء/ ٤٤. أي: لاَ تفهمونَ تسبيحَهم. وأماَ قولهَم: فَقُه (بضم القاَف) الرجل، فيراد به: فقْهُ النفس، والحذْق، والمهارة، ونحوها من الصفات التي تصير سجية في صاحبها.(٢)

والفقه في الاصطلاح يطلق على أمرين:

الأمر الأول: معرفة الأحكام الشرعية، المتعلقة بأفعال المكلفين وأقوالهم، المكتسبة من أدلتها التفصيلية... وذلك مثل معرفتنا: أن غسل الوجه فرض في الوضوء؛ للآية : {يا أَيُّها الَّذين آمنوْا إذَا قُمتم إلَى الصَّلاة فاغْسلُواْ وجوهكُم وأَيْديكُمْ إلَى الْمرافق وامسحواْ برؤُوسكُمْ وأَرجلَكُم إلَى الْكَعبين ...}المائدة/ ٦

الأمر الثانيَ: الأحكام الشرعيَة نفسها، ومن هنا يقال: درس فلانٌ الفقه وتعلمه: درس الأحكام الفقهية الموجودة في كتب الفقه، المستمدة من أدلتها التفصيلية، مثل:

---

١) – ابن منظور ، محمد بن مكرم جمال الدين : " لسان العرب ١/ ٦٨ " وانظر : أنيس ، ابراهيم وآخرون " المعجم الوسيط " ١/ ٤٥ .

٢) – الرازي ، محمد بن ابي بكر : " مختار الصحاح" حرف الفاء (فقه). ص ٣٤٥ ، وانظر : ابن منظور ، جمال الدين " لسان العرب " ١١/٢١٠

أحكام الصلاة، وأحكام البيع، وأحكام القضاء.([1]) ، والمقصود هنا التعريف اللغوي وليس الاصطلاحي

الفرع الثالث : مفهوم التغيير الحضاري وتحته مسائل :

المسالة الاولى : مفهوم التغيير لغة واصطلاحا .

التغيير لغة : الغين والياء والراء أصلان صحيحان :الأول يدل على صلاح واصلاح ونعمة ، والثاني : يدل على اختلاف شيئين ، فالأول : فالغيرة هي الميرة وبها صلاح العيال بالزاد والمال ، والغيرة ايضا : غيرة الرجل على أهله وفي ذلك صلاح ونعمة.([2])

التغيير اصطلاحا : التغيير يأتي على وجهين :

الأول : تغيير صورة الشيء دون ذاته ، يقال غيرت داري : إذا بنيتها بناءا غير الذي كانت عليه فهذا تغيير للصورة ، والثاني : التبديل ، فيقال : غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما فهذا تغيير للذات ومنه قوله تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " الرعد :١١([3])

ويقول الجرجاني : التغيير على أصلين : أحدهما : إحداث شيء لم يكن قبلَه.

والثاني : انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى.

فمن الأصل الأول: (غَيَّره): جعلَه غير ما كَانَ، و(غَيَّره): حوَّلَه وبدَّلَه.

ومن الأصل الثاني: (الغير)؛ أَي: تَغَيُّر الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.([4])

ويقال : إن معنى التغييرَ في الاصطلاح لا يختلف عن معناه اللغوي .([5])

---

١) – العسقلاني ، احمد ابن حجر : " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ١/ ١٩٨ الحديث ٧١ وانظر : ابن عابدين ، محمد أمين : " رد المحتار على الدر المختار " المقدمة ٣٦/١

٢) – ابن فارس ، احمد بن زكريا " مقاييس اللغة " ص ٣٢٤ مادة (غير)

٣) – الكفوي ، ابو البقاء : " الكليات " ١/ ٦٦٣ ، وانظر الأصفهاني ، الراغب : " المفردات " ص ٦١٩

٤) – الجرجاني : احمد " التعريفات " مادة غير ص ٢١٣ ، وانظر : لسان العرب، ابن منظور، حرف الراء مادَّة (غير) .

٥) – مجموعة من الباحثين " الموسوعة الفقهية الكويتية ١٣/ ٧٠ وانظر: عبادة ، عبد اللطيف "فقه التغيير عند مالك بن نبي " ص ٧٨ وما بعدها .

وذهب بعض العلماء إلى أن التغيير هو: التبدل الذي تتعرض له مختلف البنى الاجتماعية، والذي يمس جميع أنواع الفعاليات، وما يرتبط بها من التزامات تقتضي إعادة النظر في الوسائل والإمكانات، وكيفية استعمالها وتوظيفها(١) .

ومن هنا نرى أن معنى التغيير شامل ومتعدد ، بل ويكون إيجابيا إذا كان من الأسوء للأحسن ، ويكون سلبيا إذا كان العكس .

المسألة الثانية : حقيقة الحضارة الاسلامية وتحتها مقاصد:

المقصد الأول : مفهوم الحضارة لغة :

يقول ابن فارس : "الحاء والضاد والراء: إيراد الشيء وروده ومشاهدته، وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحداً. فالحضَر خلاف البدو"(٢).

وفي القاموس المحيط : "والحضَر – محركة – والحضرة والحضارة– وبفتح – خلاف البادية، والحضارة: الإقامة في الحضر"(٣).

وقال الجوهري: "والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن، والقرى، والريف، والبادية خلاف ذلك، والحضارة: الإقامة في الحضر(٤) .

وفي المعجم الوسيط : "حضر فلان – حضارةً: أقام في الحضر، وحضر الغائب حضوراً: قَدِمَ . والشيء والأمر: جاء وحضرت الصلاة: جاء وقتها. والحضارة بفتح الحاء وكسرها الإقامة في الحضر وضد البداوة، والحضر: المدن والقرى والريف، ومن الناس: ساكن الحضر"(٥).

---

١) – الجراري ، عباس " الاصلاح المنشود ص ٩٨ وانظر : عبادة ، عبد اللطيف "فقه التغيير عند مالك بن نبي " ص ٨٠

(٢) ابن فارس ، احمد بن زكريا " معجم مقاييس اللغة" ، ص ٢١٤، مادة "حضر".

(٣) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، ص ٥١٤، مادة "حضر".

(٤) الجوهري ، اسماعيل بن حماد نصر الدين " الصحاح" ٦٣٢/٢، مادة حضر.

(٥) المعجم الوسيط (مرجع سابق) ، ص١٨٠-١٨١ ، مادة "حضر" .

إذن: فالحضارة جاءت بالمعنيين: بمعنى الحضور، وهو نقيض الغيبة، وبمعنى الحضر وهو خلاف البادية.

فإذا كانت الحضارة بالمعنى الأول – أي الحضور – فهي تعطي دلالات معينة على المقدرة المفترضة لحضور أصحابها في المجتمعات الإنسانية، وامتداد هذا الحضور للتطور المستمر، والتجديد المتواصل.

أما إذا أخذنا الحضارة بمعناها الثاني؛ فهذا قريب من المعنى الأول؛ لأن البدو ليس لهم حضور بالمعنى المعنوي؛ لكثرة ترحالهم، وانقطاعهم عن التواصل مع المجتمعات الأخرى(١).

المقصد الثاني : الحضارة اصطلاحاً :

يقول ابن خلدون: "والحضارة، هي : مرحلة متقدمة من مراحل الرقي الاجتماعي تتطلع إليه الجماعات البشرية بطبعها، وإن كانت في أول أمرها متخلفة ضاربة في البداوة والبدائية، وذلك لما يكون في ظل الحضارة عادة من يسر في العيش ورغد، ولما يتاح فيها من فرص تنمية ملكات الناس العقلية، والفنية، والروحية، وإشباع طموحاتهم الفردية والجماعية في تلكم المجالات، جميعاً"(٢).

ويطلق عليها علماء المجتمع بأنها : "تطلق على كل ما يخترعه الإنسان في سائر جوانب أنشطته العقلية، والخلقية، والمادية، والنفسية"(٣).

---

(١) الميلاد ، زكي" المسألة الحضارية " بيروت ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٦م . ص٩٣

وانظر: السنيدي ، فهد "حوار الحضارات المحددات والضوابط في ضوء الكتاب والسنة"، بحث مشارك به في كرسي الأمير سلطان للدراسات الإسلامية المعاصرة، الرياض ، ط: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، ١٤٣١هـ. ص ٣٨-٣٩

(٢) ابن خلدون ، احمد " مقدمة ابن خلدون " بيروت ، ط: دار البيان ، د.ت . ص٨٦-٨٩،

(٣) حسين ، محمد" الإسلام والحضارة الغربية" بيروت ، ط: دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨هـ ص ١٦١

ويرى علماء مجمع اللغة العربية أن الحضارة: "مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني وهي عبارة عن مظاهر الرقي العلمي والفني، والأدبي، والاجتماعي في الحضر"(١).

ونستطيع من خلال تلك التعريفات السابقة أن نصبو نحو تحليل موجز لمفهوم الحضارة؛ فنقول : إنه بإحصاء صور التقدم والرقي عند الإنسان نستطيع أن نرجعها إلى ثلاثة أصناف ، وهي:

أولاً : ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش، وأسباب الرفاهية والنعيم ومعطيات اللذة للحس والنفس. ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم العمراني والزراعي والصناعي والصحي، والأدبي والفني، والتقدم في الإنتاج الحيواني، واستخراج كنوز الأرض والاستفادة منها، وما أشبه ذلك.

ثانياً : ما يخدم المجتمع الإنساني، ويكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء، وتمنحه سيادة النظام والعدل والحق وانتشار أنواع الخير والفضائل الجماعية، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الاجتماعي الشامل للنظم الإدارية والحقوقية، والمالية، والأحوال الشخصية، الشامل للأخلاق والتقاليد والعادات، وسائر طرق معاملة الناس مع بعضهم بعضاً، وكل أنواع الثقافات التي تخدم هذا الصنف .

ثالثاً : ما يأخذ بيد الإنسان فرداً كان أم جماعة على السعادة الخالدة التي تبدأ منذ مدة إدراك الإنسان ذاته والكون من حوله، وتستمر مع نفس الإنسان وروحه الخالدتين إلى ما لا نهاية "في الدنيا والآخرة" ، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الفكري القائم على التأملات الحكميَّة التي توصل الإنسان إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى، وسر وجود الإنسان، وغايته ومصيره وواجبه في الحياة الدنيا، وسبل

(١) أنيس ، ابراهيم (مرجع سابق) " المعجم الوسيط" ، ص١٨١، مادة "حضر" .

سعادته الأبدية الخالدة في الدنيا والآخرة وهي الأمور التي تحمل اسم المعتقدات والواجبات الدينية وسائر التكاليف والآداب الشرعية(١).

المقصد الثالث: عوامل قيام الحضارات : وتحتها جوانب :

الجانب الأول : موقف الإسلام من التقدم الحضاري

توصل الباحثون بدراستهم لموقف الإسلام من أنواع التقدم الحضاري إلى أن الإسلام قد تولى تحديد المرتبة العظمى من مراتب الرقي في السلم الحضاري(٢) ، وإقامة معالمها، وإنارة، سبيلها، ودعا الناس جميعاً إلى الأخذ بها، والانتفاع من ثمراتها العاجلة والآجلة .

ورسم للناس المنهاج القويم الذي يكفل لهم سبقاً عظيماً في درجات المرتبة الوسطى فأنزل لهم الشرائع والأحكام الكفيلة بأن تقيم لهم مجتمعاً إنسانياً فاضلاً.

إذا التزموا تطبيقها ، وترك لهم مجالاً واسعاً للاستزادة من النظم الحضارية التي أذن لهم بأن يتابعوا تطويرها و تحسينها بحسب ما تقتضيه مصالحهم المعاشية ورفاهيتهم

أما المرتبة الدنيا التي تحتوي على ما يخدم الجسد ويمتعه فقد أطلق الإسلام للناس مجالات الابتكار فيها والتحسين والتنافس، استجابة لدوافع غرائزهم وشهواتهم، ومختلف أنواع ميلهم النفسي إلى زينة الحياة الدنيا ما لم يتجاوزوا في شيء من ذلك بالاستعمال جانب الخير على جانب الشر.

---

(١) الميداني ،عبد الرحمن حسن "الحضارة الإسلامية " ، ص١٩، ٢٠ ، ط: دار القلم، دمشق، ١٤١٨هـ .

(٢) حيث ينقسم الرقي في السلم الحضاري إلى مراتب ثلاث:

الأولى : هي ما تأخذ بيد الإنسان فرداً كان أو جماعة إلى السعادة الخالدة الأبدية مروراً بالدنيا وانتهاء بالآخرة.

الثانية : هي ما تمنح الإنسان سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة، وسيادة النظام والحق والعدل .

الثالثة : مرتبة الرقي المادي الذي يخدم الجسد الفاني ويمتعه . المرجع السابق ص ٢٢ .

وبذلك تكون الحضارة الإسلامية معينة بالبدء من القمة نظراً إلى شرف الغاية التي توصل إليها المرتبة العليا من مراتب الحضارة الإنسانية[١].

فما استمسكت أمة بالإسلام الحق إلا كان نصيبها من التقدم الحضاري أوفر نصيب واسماه، وذلك لأن الإسلام قد أحب للناس كل أنواع التقدم والرقي الحضاريين إلا أنه باشر بنفسه الأهم فتولاه تداركاً لبني آدم حتى لا يطول أمدهم في الهمجية والانحراف والشتات، وتحقيقاً لحكمة الابتلاء التي يكمن فيها سر خلق الله الإنسان كائناً ذا عقل وإرادة ومقدار من القدرة على التنفيذ .

أما المهم فقد تركه الإسلام للعمل الإنساني الذي يقوم على التطوير والتحسين والابتكار والتنافس لإحراز قصب السبق في شتى الميادين الحضارية .

وربما نلاحظ في أمم الأرض صوراً حضارية كثيرة لكنها في معظم أحوالها لا تعدو درجات المرتبة الدنيا، وبعض درجات المرتبة الوسطى من مراتب الرقي الحضاري وكثيراً ما تصاب الإنسانية بويلات جسام نتيجة لسبق حضاري مادي مجرد عن حضارة خلقية ونفسية ذات سلوك فاضل فيكون هذا السبق المادي وسيلة للطغيان وخراب العمران، والإفساد في الأرض[٢] .

إذن؛ فلا يصح أن تقاس حضارة الإنسان المثلى على وجه العموم بمقدار ما يتوصل إليه من تقدم في ابتكار الوسائل المادية، التي تخدم الجسد الفاني وتحقق لذاته وسعته وقوته، واختصار الزمن له، وتقريب المسافات ، وإنما هي لون حضاري يتناول جانبين من جوانب النشاط الإنساني وهو الجانب المادي ولا يرتقي هذا النشاط المادي في مصلحة الخير والرقي ما لم يرافقه تقدم حضاري اجتماعي ونفسي وفكري ضمن الأسس الدينية الربانية، وإلا كان تدنياً في درك الشر وسبباً للإفراط في الهمجية[٣].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥ .

الجانب الثاني : شروط التقدم للإنجاز الحضاري :

لاشك أن التعامل مع مسألة الإنجاز الحضاري تعامل معقد بعض الشيء أو جله ذلك؛ أن حركة الحضارة وتجلياتها المتنوعة تخضع لسنن ونواميس الكون في الأنفس والآفاق، وتتداخل فيها عناصر متعددة، وتتدافع فيها أقدار ويتشابك فيها الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

الماضي الذي يشكل جذور الحضارة الممتدة في العمق، والحاضر الذي يشكل مستقبل الماضي بكل ما انتهى إليه هذا الماضي، كما أنه يشكل في الوقت نفسه ماضي المستقبل، الذي يشكل آفاقه ومؤشراته واستشراقاته وتحولاته، وذلك يقتضي توفر وحضور مجموعة تخصصات وخبرات وأدوات بحثية متوازية مع مركب المسألة الحضارية، إضافة إلى امتلاك الرؤية الثقافية أو العقدية عن الكون والإنسان والحياة، بحيث تكون تلك الرؤية قادرة على الإجابة بشكل شاف عن عالم الغيب الذي هو مصير الإنسان النهائي لأن الحضارة في الحقيقة هي المصب النهائي أو الثمرة والمحصلة النهائية لهذه الأمور مجتمعة.

لذلك فهي أبعد ما تكون عن مجال الرغبات والأمنيات والشعارات، كما أنها أبعد ما تكون – أيضاً – عن المصادفة والعبث والانفلات عن قوانين الحياة لذلك؛ فقد أكدت معرفة الوحي على أهمية التعامل مع السنن الجارية بعيداً عن العبث واعتماد المصادفة والسنن الخارقة في عملية البناء الحضارية، وبينت أن الإنجاز الحضاري يخضع لسنن وقوانين مطردة لا تحابي فرداً على فرد ولا أمة على أخرى فالأمر منوط بعزمات البشر كما أنها تخضع الموازين العدل والأمن التي تحقق لها الحماية والامتداد على الزمن(١) . قال تعالى :﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء:١٢٣] ، موازين عادلة .

(١) حسنة ، عمر عبيد "الوراثة الحضارية " ، بيروت ط: المكتب الإسلامي، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م. ص٢٥، ٢٦

وقال تعالى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٢].

وما لم تدرك هذه السنن الجارية المطردة التي تقع ضمن عزمات البشر، تشكل في حقيقتها أبعاد التكليف الإلهي لحمل مكانة الاستخلاف والقيام بعمران الأرض؛ فسوف يستمر المسلمون في غرفة الانتظار، خارج حدود الماضي والحاضر والمستقبل، وما لم يدركوا ذلك فهم يكرسون التخلف، ويعانون العجز والتخاذل، وقد يلجؤون لتسويغ واقعهم بتقطيع الرؤية الإسلامية والانتقاء من معارف الوحي ما يكسبهم الاطمئنان الخادع الناشئ عن أقدار من التدين المغشوش البعيد عن إدراك حقيقة الدين ومقاصده ودوره في بناء الحضارة(١) .

والأمر الذي لابد من الاعتراف به هو أن الإنجاز الحضاري لا يمكن أن يتحقق إلا بإدراك مسيرة الحضارة، ومعرفة عللها، وعواقبها، والتعرف على قوانين الحركة التاريخية والاجتماعية، وامتلاك القدرة على مدافعة سنة بسنة، والتمكن من عملية التسخير بهذه السنن، والقيام بالتغيير والتحويل لوجهة الحضارة ولحماية مسيرتها وتحقيق مقاصدها المأمولة(٢).

من هنا فإن المنهج الذي ينبغي أن يتبع في النظر والتقدم للإنجاز الحضاري لابد وأن يخضع للشروط التالية :

أولاً : التعرف على الذات تماماً . بكل أبعادها بما يمكن أن نصطلح عليه "الإمكان الحضاري" الذي يؤهل الأمة المسلمة للقيام بالدور المطلوب نحو ذلك.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ بتصرف . وانظر : برغوث ، الطيب " الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية" ، سوريا ،ط: مركز الراية للتنمية الفكرية ، ط١: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م ص ٥٥-٥٩.وانظر : زيدان، عبد الكريم " السنن الالهية في الأمم والأفراد والجماعات" بيروت ط دار القلم ١٩٨٩ م ص ١٥٧

(٢) برغوث ، الطيب " الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية" (مرجع سابق) ص١٥٩ . وانظر : زيدان ، عبد الكريم " السنن الالهية في الأمم والأفراد والجماعات" (مرجع سابق) ص ١٥٧

ثانياً : التعرف على الآخر بكل إنجازاته الحضارية وإشكالاته أو إصاباته كشريك حضاري يمتلك أدوات السبق والغلبة والحضور في كل المواقع .

ثالثاً : تحديد موقع الأمة الإسلامية من مسيرة هذه الحضارة والدور الذي يمكن أن تساهم به لإعادتها إلى الجادة ونشر رسالتها وربط الإنجازات العلمية والتقنية بأهدافها[1] إذن فالإنجاز الحضاري ليس أماني ولا أحلام يقظة ومكوث في غرف الانتظار وعدول عن السنن الجارية في الحياة والأحياء إلى السنن الخارقة، وإنما هو خاضع لأمانة الاستخلاف وعزمة البناء، والتراكم المعرفي، والاكتشاف للسنن الفاعلة في الأنفس والآفاق، وممارسة لعملية التسخير وامتلاك للشروط والمقومات بأعباء الاستخلاف والعمران[2] .

الجانب الثالث : سبل تحقيق التقدم الحضاري :

ولتحقيق التقدم والرقي الحضاري عدة سبل:

أولاً : ما ينزل به الوحي أو يفيض به الإلهام.

ثانياً : ما يتوصل إليه العقل بالبحث العلمي.

ثالثاً : ما يكتسبه الإنسان عن طريق الاختبار والتجربة والممارسة التطبيقية .

أما الصنف المادي لصور التقدم والرقي عند الناس فالسبيل الطبيعي إليه إنما هو استخدام العقل في البحث العلمي والاختبار والتجربة والممارسة التطبيقية العملية، وقد يسعف الوحي بشيء من ذلك فنجده أخصر طريق إلى الكمال فيه .

وأما الصنف الذي يخدم المجتمع الإنساني فللتقدم والرقي فيه سبيلان :

١ – التلقي التعليمي من طريق الوحي .

٢ – استخدام العقل في البحث العلمي والاختبار والتجربة العملية .

---

(١) الواقعية الإسلامية (مرجع سابق)ص ٦٢-٦٤ . وانظر : السنن الالهية في الأمم والأفراد والجماعات (مرجع سابق) ص ١٥٩

(٢) المراجع السابقة ، ص ٣١، ١٦٠

وأما الصنف الثالث الذي يأخذ بيد الناس إلى السعادة الخالدة، وهو المشتمل على المعتقدات والواجبات الدينية، وسائر التكاليف والآداب الشرعية والتعبدية فالسبيل إلى تحقيق التقدم والرقي فيها إنما يكون بالتلقي التعليمي عن طريق الوحي فقط[(١)] .

المسألة الثالثة : أسس الإنجاز والتقدم الحضاري "الإمكان الحضاري"

لاشك أن الأمة الإسلامية لديها من المؤهلات ما يجعلها ترتقي نحو القمة بله وتبلغ ذروة سنامها منفردة بهذا التميز عن سائر الأمم والحضارات الأخرى .

وأول هذه المؤهلات "مقومات الحضارة":

١ – امتلاك النص السماوي السليم .

وهو النص الخالد الصحيح المعصوم عن التحريف والتزييف، وتملك البيان النبوي البليغ الحصيف الذي استوعب رصيد النبوة التاريخي، وأصل لسنن سقوط الأمم ونهوضها، أو قوانين الحركة الاجتماعية التاريخية واعتبر ذلك منهجاً خالداً جارياً على الأمم جميعاً دون محاباة، نافذاً في كل زمان ومكان.

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران:١٣٧] .

بيد أن امتلاك النص بهذه السمات كماً وصنفاً ليس هو المأزق الحقيقي والمعوق الحضاري لنا نحن المسلمين اليوم، إنما الأزمة الحقيقة تكمن في كيفية التعامل مع هذا النص الخالد، وكيفية تنزيله على واقع الناس وتقويم سلوكهم به وتحقيق مقاصده وأهدافه في الحياة[(٢)] .

---

(١) الميداني ، عبد الرحمن "الحضارة الإسلامية" (مرجع سابق) ص ٢٠-٢١ . وانظر : عثمان، حامد محمد"معايير الوسطية وضوابطها بين الواقع والتطلعات" الرياض- كرسي الأمير سلطان للوسطية والدراسات الاسلامية المعاصرة ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) حسنة ، عمر عبيد " الوراثة الحضارية" (مرجع سابق) ص ٣٣-٣٤ ، بتصرف .

لذلك حتى تفيد الأمة المسلمة من هذا الإمكان الحضاري "الأساس لابد لها من المراجعة وإعادة النظر وتغيير منهج التعامل؛ لأن ما نحن عليه من التخلف والركود هو دليل فساد منهج التعامل.

٢ – خلود النص :

وهذه ميزة عظمى وحلقة قوية في سلسلة الإمكان الحضاري للأمة حيث بها تمنح القدرة على التجدد والتجديد ومتابعة الإسهام والعطاء العالمي، فخلود النص هو الذي يدفع بالأمة نحو الاجتهاد وإعمال العقل في استشراف المستقبل، ووضع الأوعية والتخطيط لحركة الأمة ضمن أطر القيم الشرعية التي أسستها معارف الوحي، والاجتهاد في إيجاد الحلول للمشكلات والأزمات الطارئة، وجعل التفكير فريضة إسلامية (١) ، وذلك كله يقع استجابة لقوله ﷺ : "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (٢).

٣ – عقيدة التوحيد :

وهي ولاشك تشكل أهم مقومات الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة وتتميز به حيث ترتكز العقيدة إلى الفطرة، وتحرر ضمير الفرد من المخاوف، وتخلصه من اليأس والإحباط كما تحرر عقله من الخرافات والأوهام، وتعتقه من تأله البشر، وتنسخ الطواغيت وتحقق المساواة بين الخلق، وتوقف تسلط الإنسان على الإنسان، وتأمنه من الخوف على حياته ورزقه، وتمنحه الثقة والتحمل؛ لأنه يرتكز إلى القوة المطلقة القادرة على كل شيء أو تمنحه الإرادة .

---

(١) الواقعية الإسلامية (مرجع سابق) ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢) السجستاني ، احمد بن شـ عيب "سنن أبي داود " كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المائة الكتب الستة ١٦٧٥/١، رقم (٤٢٩١)، وصححه الألباني في صحيح السنن برقم ٢١٢ .

لكن المشكلة في الغواش التي لحقت بعقيدة التوحيد فتحولت، وأخضعت في مناهج تدريسها وبحثها إلى لون من الفلسفة بمعارفها وأدواتها البحثية الجدلية وقطيعتها مع العمل والسلوك وإخراجها من دائرة الأخلاق(١).

٤ – الأنموذج التطبيقي للنص السماوي :

فالأمر الذي يميز الإمكان الحضاري للأمة المسلمة هو ما تمتلكه من أنموذج تطبيقي معصوم للنص السماوي في واقع الناس، وتحويل الفكر إلى عمل وتجسيد القيم في حياة الناس والامتداد بها، وذلك من خلال ما تم تطبيقه في حياة الرسول ﷺ وبحراسة الوحي في التسديد والتأييد، والامتداد به في القرون المشهود لها بالخيرية ، قال ﷺ : "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم"(٢).

لكن المشكلة هي عندما يتحول هذا الأنموذج من وسيلة إيضاح معينة على تنزيل القيم على الواقع، وتقديم رؤية عن حلول وأوعية لحركة الحاضر إلى معوق يحبس الناس أنفسهم من خلاله أو يعجزون عن تجريده عن قيود الزمان والمكان.

أو بمعنى آخر : عدم امتلاك القدرة على وضع الحياة المعاصرة بظروفها وإمكاناتها بالموقع الصحيح من مسيرة الأنموذج، والاستفادة والاقتداء بهذا الموقع في هذه المرحلة(٣).

٥ – إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة :

حيث يتمحور الخطاب بكل نماذجه وأبعاده حول إعادة بناء الإنسان، محور الحضارة ومعيارها والارتكاز في ذلك يكون إلى رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها حيث لا يأتي تشريع أو تعاليم سماوية إلا ملبية لحاجة الإنسان الأصلية والخارجية والتحسين متوائمة في ذلك مع طاقات الإنسان واستطاعته.

---

(١) الواقعية الإسلامية(مرجع سابق) ، ص ٦٦- ٦٧ .

(٢) النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم "كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم الكتب الستة ١٥٢٥/١ رقم (٢٥٣٥).

(٣) الواقعية الإسلامية (مرجع سابق) ص ٧٢ .

كما أن الخطاب جاء عالمياً منذ اللحظة الأولى لحركة الدعوة، وجعل الأجناس والأقوام والبلدان عوامل عطاء حضاري، ووسائل تكامل وتعاون .. يضاف إلى ذلك أن الإسلام منح الإنسان حرية التدين والاختيار وترتب على ذلك أن جعل ميزان الكرامة كبيان من صنع الإنسان قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] فلم يجعله قسرياً يعتمد الفوارق البشرية ؛ لذا أصبح باب الإنجاز الحضاري مفتوحاً للجميع(١).

٦ – وراثة التجربة التاريخية للنبوة:

ومن صور الإمكان الحضاري للأمة الإسلامية؛ اعتبار الرسالة الإسلامية حلقة في السلسلة الحضارية لرسالات السماء ولبنة في البناء الحضاري لمسيرة النبوة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢]، وبذلك كانت رسالة الإسلام هي اللبنة الأخيرة التي حققت الكمال والاكتمال، والرسالة الإسلامية وريثة النبوة .

وهذا العمق الحضاري لاشك أنه يؤهل الأمة لمسيرة الإنجاز المنشود، لو كانت في مستواها الإسلامي المطلوب(٢).

٧ – التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية :

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة الإسلامية، ما تمتلكه من التجربة التاريخية الحضارية والإنسانية التي ساهمت فيها جميع الأجناس والألوان والأقوام فجاءت مشتركاً إنسانياً تأبى على العنصرية واللونية والجنسية والقومية والتعصب وخضعت للنصر والهزيمة، والنهوض والسقوط فجاءت تجربة تضاريسها غنية بكل النماذج البشرية وبكل المواقع الحضارية ، إضافة إلى القيم المعيارية المتأتية من معرفة

(١) الواقعية الإسلامية(مرجع سابق) ص ٧٤ .

(٢) الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية(مرجع سابق) ص٧٥.

الوحي، التي تحدد الانحراف والاستقامة، وتمتاز هذه القيم بأنها خارجة عن وضع الإنسان وانحيازه لإنتاجه، الأمر الذي يجعل هذا المخزون الضخم رديفاً ودليلاً حضارياً لتقويم مسيرة الحاضر وإبصار المستقبل(١).

٨ – الوحي مصدر القيم والمبادئ .. والعقل أداة البرامج :

ومن أهم صور الإمكان الحضاري للأمة المسلمة ؛ أن معرفة الوحي تضمنت قيماً هادية ومبادئ عامة رسمت السياسات والمسارات الكبرى، وضبطت المسيرة بنسب متوازنة وقيم أخلاقية ثابتة، وتركت أمر وضع البرامج ورسم الخطط والتنزيل على الواقع بحسب قضاياه ومشكلاته من مهام العقل ووظائفه وفي ذلك طلاقة للعقل، وحرية لحركته، واعتماد له في الاجتهاد ودراسة الواقع محل تنزيل النص وتقدير الاستطاعات المتاحة في ضوء الظروف المحيطة للنهوض بالمجتمع(٢).

٩ – امتلاك الطاقات المادية والروحية والأدمغة البشرية المتجددة.

وذلك من خلال التعاليم الإسلامية المتجددة والإقبال المتزايد على الإسلام على الرغم من كل الظروف المحيطة بالمسلمين.

وهذه الطاقة الروحية تصوغ الفرد المسلم صياغة أخرى ليبقى فاعلاً معطاء مؤثراً لغيره محتملاً لكل المصاعب محباً للآخرين مسؤولاً عن ذلك أمام الله تعالى ، قال ﷺ : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٣).

كما أن الطا قة المادية التي تمتلكها الأمة لا تقل أهمية وإسهاماً عن هذه الطاقة الروحية حيث يمتلك المسلمون ثروات عظيمة من خامات ومعادن ونفط ومساحات زراعية وتنوع مناخي وجبال وأنهار وبحار وثروات حيوانية، وأيد عاملة ... الخ .

---

(١) الواقعية الإسلامية (مرجع سابق) ص ٨٢ .

(٢) الواقعية الإسلامية (مرجع سابق) ص٨٥ .

(٣) " صحيح مسلم " (مرجع سابق) كتاب الإيمان باب (٧٢) من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ماي حب لنفسه الكتب الستة ٧٥٩ رقم (٤٦) .

كما أن الإسهامات ممتدة بشكل أساسي في توافر تلك الأدمغة ذات الاختصاصات العلمية المتنوعة في شعب المعرفة جميعاً، الأمر الذي يؤدي إلى نوع من التكافل الذي يمكن الأمة من القيام بالدور الحضاري المأمول (١).

١٠ – الاعتراف بالآخر ومعرفته الأكيدة :

ولعل من أهم صور الإمكان الحضاري للأمة الإسلامية، هو ما أكدته القيم الإسلامية من خلال معارف الوحي من أهمية الاعتراف بالآخر وعدم إقصائه أو إلغائه وليس على مستوى الفكر وإنما على مستوى الفعل أيضاً – والاستمرار والحوار معه ودعوته للحق بالأسلوب الهادئ والمجادلة معه بالتي هي أحسن.

قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل:١٢٥] والتعامل معه بدون شروط مسبقة ومسلمات مبهمة بل البدء برحلة مشتركة في التعاون والبحث عن الحق، ومن ثم الاعتراف ببعض فضائل الآخر واستصحابها والتأثير والتأثر به خاصة وأنه مسيطر على العالم اليوم بثقافته وحضارته المادية والتي تسهم بشكل مذهل في الميل والانحياز له.

فلابد من الإحاطة الكاملة بعقيدته، وثقافته أو فلسفته عن الحياة وتاريخه وواقعه ومشكلاته، وإدراك أسبابها؛ إذ لم تعد الأزمات الغربية تقتصر عليه؛ بل أصبحت عدوى ووباء حضاري ينتشر بسرعة في شتى البقاع من حوله.

إذن فلاشك أن معرفة الآخر جيداً والاعتراف به على نحو واقعي يمنح الأمة آفاقاً وإمكانات حضارية تؤهلها للقيام بدورها الحضاري المنشود (٢).

المسالة الرابعة : مفهوم المركب الوصفي (التغيير الحضاري).

لا شك أن إضافة مصطلح الحضارة إلى مصطلح التغيير أضفى على هذا المركب مفهوما جديدا فليس المراد من انتقال الحال والسلوك أو تبديلهما من الأسوء

---

(١) المرجع السابق ص٤٤-٤٨ بتصرف .

(٢) الواقعية الإسلامية(مرجع سابق) ، ص١٠٥-١٠٦ .

الى الأحسن هو المراد فحسب بل لابد أن يتم ذلك كله وفق منهج صحيح وشامل لكل مناحي التنمية والإصلاح ، بل يكون بمثابة القاعدة والإطار المرجعي لكل سلوك أو حركة تدور في بوتقة التغيير والاصلاح ، وتكون غايته بلوغ الذروة والكمال في مجال الحضارة والعمران ، وحيث إن الإسلام يتسم بكل معاني الشمول والتكامل والتنمية الواعية والرقي الحضاري ؛ فلا مناص إذن من التمسك بقيمه ومنظومته الفكرية الواعية

وقد يأخذ التغيير في منهج المعرفة الإسلامي شكلا تكوينيا يتمثل في حل الإنسان لمشاكله المتجددة من خلال ثلاثة خطوات هي: المشكلة ، الحل ، العمل. وشكل تكليفي يحدد الشكل التكويني السابق فيكمله ولكن لا يلغيه ، فيكون بمثابة ضمان موضوعي مطلق لاستمرار فاعليته ، حيث يحدد نوع المشاكل التي يواجهها الإنسان، وطرق العلم بها ونمط الفكر الذي يصوغ حلولها ،وأسلوب العمل اللازم لحلها.([1])

الفرع الرابع : مفهوم الاسراف لغة واصطلاحا

عرفه ابن فارس بمعان مختلفة فقال : «سرف : السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد والإغفال . . . ويقولون إن السرف أيضا الضراوة» . واعتبر مجيئه بمعنى الدويبة شاذا حيث قال : «وما شذ عن الباب السرفة : دويبة تأكل
الخشب» ([2]) .

---

١)- خليل ، صبري : " قضايا التغيير ومفهوم المفاضلة " مقال على الانترنت : موقع : https://drsabrikhalil.wordpress.com انظر : عبادة ، عبد اللطيف "فقه التغيير عند مالك بن نبي " ص ٨٨

٢) – ابن فارس ، احمد بن زكريا " معجم مقاييس اللغة "(مرجع سابق) ص ٢٣٤ مادة سرف

وعرفه الراغب بتجاوز الحد : «السرف : تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الانفاق أشهر» ([1]) .

وذكر صاحب المصباح المنير أن السرف معناه تجاوز القصد والاعتدال فقال : «أسرف إسرافا : جاز القصد . والسرف . بفتحتين . اسم منه ، وسرف سرفا من باب تعب : جهل أو غفل فهو سرف ، وطلبتهم فسرفتهم بمعنى أخطأت أو جهلت»([2]) .

واعتبره ابن منظور . كغيره . يجيء بمعان عديدة ، منها : التجاوز عن القصد ، قال : «إن السرف والإسراف مجاوزة القصد ، وأسرف في ماله : عجل من غير القصد ، وأسرف في الكلام وفي القتل : أفرط ، والسرف : الخطأ بمعنى وضع الشيء في غير حقه ، والسرف : اللهج بالشيء والسرف : ضد القصد . وأكله سرفا : أي في عجلة» ([3]) .

وعند التحقيق نجد أن المستفاد من كل هذه الدلالات هو خمسة عشر معنى ، هي :

١. الإغفال . ٢. الجهل . ٣. الخطأ . ٤. الخطل . ٥. التبذير . ٦. ضد القصد . ٧. مجاوزة الحد . ٨. المجاوزة عن حد الاستواء . ٩. الانفاق لغير حاجة . ١٠. الانفاق في غير حقه . ١١. الانفاق في غير طاعة الله . ١٢. الانفاق في المعصية . ١٣. الإكثار من الذنوب . ١٤. ما استقبحه العقلاء . ١٥. الجهل الخاص الذي هو الجهل بمقادير الحقوق .

ويمكننا في مقام الاستنتاج :أن نقول : إن المعنى الأول والثاني والخامس عشر تتحد في معنى واحد ، وكذا المعنى الثالث والرابع يتحدان في معنى واحد ،

---

١)- الأصفهاني ، الراغب " المفردات " ص ١٧٨

٢)- الفيومي ، المقر ئ " المصباح المنير " ص ٣٤ مادة سرف

٣)- ابن منظور ، جمال الدين " لسان العرب " ٤ / ١١٢ مادة سرف

وأيضا يتحد المعنى الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والثالث عشر ، فإن مرجعها إلى معنى واحد .

فيعود مجموع المعاني إلى خمسة : ١. الجهل . ٢. الخطأ . ٣. تجاوز الحد . ٤. الانفاق في المعصية . ٥. ما استقبحه العقلاء .

ولما لم يكن إرادة المعنيين الأوليين . أي الجهل والخطأ . من الإسراف في المال إلا بنوع إرجاع إلى أحد الثلاثة الأخيرة ، فالمعنى الذي يمكن إرادته من الإسراف في المال هو أحد هذه الثلاثة ([1])

التعريف الاصطلاحي للإسراف :

بالرغم من رجوع المعنى الاصطلاحي للإسراف إلى المعنى اللغوي بحيث لا يرى بينهما فرق فارق، إلا أن ثمة اختلافا بين المصاديق والموارد ، فقد تقدم أن للإسراف لغة معاني عديدة ، وأن الأصل في الجميع هو تجاوز الحد وما عداه مصداق له.

وأما المعنى الاصطلاحي للإسراف فهو أخص من المعنى اللغوي ؛ لأن تجاوز الحد الذي يستقبحه العقلاء يعد إسرافا ، فاذا الإسراف ليس هو مطلق التجاوز عن الحد، بل التجاوز الذي لا يكون فيه غرض عقلائي ويستقبحه العقلاء .

من هنا يمكن القول بان الاسراف يعني كل عمل غير متوازن و بلا مبرر و تجاوز عن الحد الطبيعي، سواء في الكيفية او الكمية.

و بهذا يتضح أن الاسراف لا ينحصر في الاكل و الشرب او في الامور الاقتصادية، بل له معنى جامع اوسع من ذلك. بل يمكن القول: ان الاسراف كل تجاوز عن الحد أو الافراط و الزيادة، أو الحالة النفسانية و الروحية و الصفات الاخلاقية و الثقافية و الاجتماعية غير المتوازنة للأفراد. و هذا التعريف يضاعف

---

١)- الرحماني ، محمد " الاسراف على ضوء الشريعة " مقال على شبكة الانترنت في موقع الشبكة العالمية لآل البيت : http://www.ahl-ul-bayt.org/ar.php/page، بتصرف يسير .

مسؤوليات الافراد؛ و ذلك لأنه يوسع دائرة الاسراف و يخرجها من الجانب الاقتصادي و الاكل و الشرب الى سائر الدوائر الحياتية.

يظهر من كلمات اللغويين و المفسرين لمادة الاسراف أن هناك ثلاثة ملاكات لصدق الحد المعتبر في الاسراف و الذي يعد الالتزام به من الوسطية و تجاوزه من الاسراف، بحيث يدرج المتجاوز في عداد المسرفين:

١. قوانين الشريعة و محرماتها: و ذلك لان المحرمات و المعاصي تعد من حدود الشريعة الالهية، و اقتراف أي منها يعد اسرافا و إن تجرد عن بذل الاموال و إهدارها، فالإسراف هنا يعني تجاوز الحدود و التشريعات الالهية.

٢. حكم العقل و المعايير العقلية: و هذا في الحالات التي يستقبح العقل صرف المال فيها، بنحو يعد التجاوز عن الحد سفاهة و جهالة، كهدر المال و تضييع الثروة في أمور لا طائل من ورائها و التي تكشف عن سفاهة صاحبها و عدم نضوجه العقلي و ضعف تفكيره.

٣. العرف الاجتماعي: كذلك يعد العرف الاجتماعي من المعايير و الموازين التي تحدد الوسطية و الاسراف؛ فعلى سبيل المثال صرف المال في شؤون الاسرة و شؤون الاصدقاء و الاخرين، محددان بحد ينسجم مع طاقات الفرد و امكاناته الاقتصادية و منزلته الاجتماعية، فاذا تجاوز ذلك الحد عد مسرفاً، و بخيلا اذا قصر عن بلوغ الحد الوسط. و قد يصل الى الحرمة كما لو صار ذلك سبباً لتضييع الواجب، و على كل حال فان الاسراف و تجاوز الحد المسوح به عرفاً يعد اسرافاً و خروجا عن حالة الاعتدال و التوازن و الدخول في دائرة قائمة المسرفين.

علماً أن حد الاسراف في الشؤون الشخصية و الإنفاقات الخاصة يختلف من فرد الى آخر عرفاً؛ و بعبارة أخرى ان العرف لم يضع حداً معيناً لجميع أفراد المجتمع في هذه القضية لايمكن تخطيه؛ لأن القضية ترتبط باعتبارات كثيرة من قبيل المكانة الاجتماعية و توسع شبكة العلاقات وكثرة افراد العائلة و.... فمن غير المعقول ان يجعل الحد لشخص وجيه في قومه و عشيرته بنحو لا يخلو بيته من الضيوف و

الزائرين، متساو مع ذلك الانسان المنزوي في قرية ما لا يزور و لا يزار !! فما يعد اسرافاً للثاني – القروي- يعد بخلا و تقصيراً بالنسبة الى ذلك الوجيه الاجتماعي.. وهكذا([1])

الفرع الخامس : التعريف بالألفاظ ذات الصلة : (التبذير – التقتير- القوام.. الخ)

ينبغي بعد اتضاح تعريف مفهوم الإسراف أن نشير إلى بعض الألفاظ ذات الصلة بذلك . ومن تلك الألفاظ :

أ . التبذير :

ذكر أكثر اللغويين أن التبذير هو بمعنى التفريق ، ويستعمل ذلك في المال الضائع . قال الراغب الأصفهاني : التبذير : التفريق ، وأصله إلقاء البذر وطرحه فاستعير لكل مضيع لماله ([2]) .

وعليه فإن الفارق بين التبذير والإسراف هو أن صرف المال في غير مورده يعد تبذيرا ؛ لأن معنى التبذير هو تضييع المال ، كما أن معنى الاسراف هو صرفه في مورده ولكن مع تجاوز الحد .

وتنبغي الإشارة إلى أن كثيرا من الموارد يستعمل فيها الإسراف بمعنى التبذير .

ب . التقتير :

وهو كما قال ابن الأثير : «التضييق على الانسان في الرزق . يقال : قتر الله رزقه ؛ أي ضيقه وقلله» ([3]) . وبذلك فسره الفيومي أيضا ، قال : «وقتر على عياله قترا وقتورا . من بابي ضرب وقعد . : ضيق في النفقة» ([4]) فالتقتير ضد الإسراف . وبعبارة

---

١) – النراقي ، احمد " عوائد الايام "ص ٦٧٤

٢)– الاصفهاني ، الراغب " المفردات " مادة بذر ص ٣٤

٣)– ابن الأثير ، جلال الدين " النهاية " ١٢/٤

٤)– الفيومي ، المقرئ " المصباح المنير " مادة قتر ص ٧٨

ثانية : الإسراف : إفراط ، والتقتير : تفريط . وقيل: الإسراف هو النفقة في المعاصي ، والإقتار الإمساك عن حق الله ([1])

ج . القوام :

القوام هو بمعنى الاعتدال والحد الوسط ، وقد استعمل في القرآن بهذا المعنى . قال الفيومي : «القوام . بالكسر . ما يقيم الإنسان من القوت ، والقوام . بالفتح . العدل والاعتدال . قال الله تعالى : (وكان بين ذلك قواما) : أي عدلا . وهو من القوام أي الاعتدال»([2]) .

فالقوام هو الحد الوسط بين التقتير والإسراف .

وقد ذكر القليوبي أن المعنى اللغوي للإسراف هو : مجاوزة الحد ، ولكن بعض العلماء خص استعمال الإسراف بالنفقة والأكل ، يقول الجرجاني في تعريفاته : الإسراف تجاوز الحد في النفقة . وقيل : أن يأكل الرجل ما لا يحل له ، أو يأكل ما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة . وقيل : الإسراف تجاوز الكمية فهو جهل بمقادير الحقوق . وقيل : هو إنفاق الكثير في الغرض الخسيس .([3])

ومما سبق نستطيع القول : إن الإسراف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان . أو قول : وإن كان في الإنفاق أشهر ، ومنه يظهر أن الاحتمالات في معنى الإسراف ثلاثة:

الأول: صرف المال متجاوزا عن الحد مطلقا، وهو ظاهر كلام كل من يقول بوجود الإسراف في وجوه الخير أيضا.

والثاني: أنه صرف المال زائدا عن اللائق بحاله في غير وجوه الخير.

---

١) – النراقي ، احمد " عوائد الايام " ٦٧٦

٢)– الفيومي ، المقرئ " المصباح المنير " مادة قوم ٨٣

٣)– النراقي ، احمد " عوائد الأيام " (مرجع سابق) ص ٦٧٧

والثالث: أنه صرف المال في المعاصي خاصة. وهو المحكي عن ابن عباس وقتادة وهذا أخص من المعنيين الأولين، ولا ريب في سقوط الأخير عن درجة الاعتبار؛ لمخالفته للعرف، والكتاب. والمستفيضة من الاخبار. ([1])

١)- النراقي ، احمد " عوائد الايام "(مرجع سابق) ص ٦٧٩

المبحث الاول : حدود الاسراف وتحته فروع :

من الأهمية بمكان ضرورة الوقوف وبشكل قطعي وصريح على حدود الإسراف على المستوى الفردي والمستوى الاجتماعي خاصة وأن الحدود في هذا الإطار قد ضاعت معالمها وتاهت كثير من العقول في ترسيمها وتأطيرها ، مما أدى إلى التباس الحق بالباطل .

الفرع الاول : حدود الاسراف على المستوى الفردي

يتضح مما سبق أن تجاوز الحد إن لم يكن هو المعنى المتعين للإسراف ، فلا أقل من كونه معنى متفقا عليه عند اللغويين جميعا ، وبذلك ينفتح البحث عن تعريف «الحد» الذي يتحقق الإسراف بتجاوزه .

وقد بحث العلماء في تعريفه ، ولعل أفضل من حقق معناه هو العلامة النراقي ، فقد ذهب إلى أن الحد الذي بتجاوزه يتحقق معنى الإسراف هو حد الاستواء والحد الوسط ، أي الحد ما بين الإسراف والتقتير ، وقد عزز ذلك بجملة من الآيات والروايات ، قال : «حد الاستواء والوسط أي بين التقتير الذي هو التضييق وبين الإسراف ، وهو الذي يسمى بالقصد والاقتصاد ؛ لأنه بمعنى التوسط والاعتدال في الامور» (١) .

ويستشهد لذلك بقوله سبحانه : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) الفرقان :٦٧ وقد فسر «القوام» في بعض الأخبار بالحد الوسط (٢) .

وقوله سبحانه : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط . . .) الاسراء :٢٩ .

وقول الإمام على – رضي الله عنه– عندما سئل عن تفسير قوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) البقرة : قال : «العفو : الوسط»(٣) .

---

١)– النراقي ، احمد " عوائد الايام " (مرجع سابق) ص ٦٨٠

٢)– القرطبي ، ابي عبد الله احمد " الجامع لاحكام القران " ١٣ ٧٨

٣)– الطبرسي ، العلامة " مجمع البيان " ١٧٩/٧

وغير ذلك من الآيات والروايات الواردة بهذا المضمون في تفسير الحد بالوسطية والاعتدال .

المعيار في الحد الوسط و مصاديقه :

لابد هنا من تعيين المراد بحد الاعتدال لكي تتكون عندنا رؤية واضحة عن ذلك ، وإلا كان الإبهام باقيا بحاله .

فنقول : إن المراد بالوسط الذي يكون التجاوز عنه إسرافا وتبذيرا : هو ما يسمى وسطا عرفا ؛ لأن المرجع في معرفة الحقائق اللغوية هي المصاديق العرفية ، فالمرجع في معرفة الوسط هو العرف ، والوسط في العرف : هو صرف المال في القدر المحتاج إليه ، أو اللائق بحال الشخص ، فكل صرف مال وإنفاق لم يكن كذلك فهو يكون إسرافا أو تبذيرا ، سواء لم يكن صرفا وإنفاقا ؛ بل كان : ١. تضييعا وإتلافا ، أو كان : ٢. صرفا ولم يكن لائقا بحاله ، أو كان : ٣. مما لا يحتاج إليه ([1])

الفرع الثاني : حدود الاسراف على المستوى المجتمعي

وأما على المستوى الاجتماعي، فإن الإسراف والتبذير من جانب الأغنياء لا شك يصعب الحياة على الفقراء لأن في الإسراف والتبذير زيادة على الطلب مما يؤدى إلى زيادة الأسعار هذا فضلا عن توسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء حيث إن الإسراف فيه إذكاء للبغضاء والشحناء بين طبقات المجتمع (الأغنياء والفقراء) ، فالفقير إذا رأى غنيا ذا أنانية ، يبدد ماله في طرق غير مشروعة كبناء القصور الشاهقة والمزخرفة ، وتجديد أثاث البيت كل عام ، وتبديل سيارته الفارهة بين عام وآخر ، أو صرفه في المحرمات ، أو اللعب به في نوادي القمار والميسر ، أو التبرع لجهات مشبوهة ، هذا في الوقت الذي يَحرم منه أهله المستحقين . . .

١)- النراقي ، احمد " عوائد الايام " ص ٦٨٥

هذا الفقير وهو يعايش هذه المشاهد ونظائرها ينزرع في قلبه بغض تلك الطبقة ويحقد عليها ويحسدها على هذه النعمة ، وربما جاء من يستغل هذه الممارسات والمواقف ليؤصل الطبقية الاجتماعية ، ويولد الفرقة بين فئات المجتمع ، كما فعله ويفعله دعاة الاشتراكية في العصر الحديث .

وكم من ثورة قام بها أراذل البشر وأوباشهم باسم الفقراء أو العمال فأكلت الأخضر واليابس ، وأحلت الخوف محل الأمن ، والفقر محل الغنى . فيا ليت قومي يعلمون !!([1])

كما أن فيه هدم وانهيار لاقتصاد الأمة ؛ إذ بالاقتصاد تنتظم العلاقات المادية الداخلية والخارجية للأمم والدول ، كما يدخل فيه التنظيم المالي للأسرة ، ولعل من أهم الآثار :

١ – إهدار الأموال وإضاعتها فيما لا يحقق مصلحة للفرد أو الجماعة ، بل ربما ترتب عليه مفاسد ، ومعروف أن المال قوام الحياة ، قال سبحانه : { ولَا تؤْتوا السُّفَهاء أَموالَكُم الَّتي جعل اللَّه لَكُم قياما } .النساء : ٥ وهو أمانة بيد الإنسان ومستخلف فيه يجب عليه أن يقوم بها على الوجه الصحيح ، وإلا كان أحد الخائنين . قال سبحانه : { آمنُوا بِاللَّه ورسوله وأَنْفقُوا ممَّا جعلَكُم مستَخْلَفين فيه فَالَّذين آمنُوا منْكُمْ وأَنْفَقُوا لَهم أَجر كَبير } .الحديد : ٧

قال أبو السعود (ت٩٥١ هـ) : " أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، عبر عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك تحقيقا للحق وترغيبا لهم في الإنفاق ، فإن من علم أنها لله عز وجل وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ما عينه الله تعالى من المصارف هان عليه الإنفاق ".([2])

---

١)– الطريقي ، عبدالله " مشكلة السرف في المجتمع المسلم " ص ٢٣

٢)– العمادي ، ابو السعود " ارشاد العقل السليم الى مزايا القران الكريم " ٦/ ٢٤٥

٢ – أن تبذير الأموال وإضاعتها خسارة فادحة على الأمة المسلمة ، فإنها ثروة عزيزة تقوي جانب الأمة وتشيد حضارتها " فالمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمة عدة لها وقوة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها حتى تكون مرهوبة الجانب مرموقة بعين الاعتبار ، غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها فيبتز منافعها ويدخلها تحت نير سلطانه .

٣ – وينتج عن التبذير اهتزاز اقتصاد الدولة المسلمة وتدني مستواه ، وربما أصيبت ميزانيتها بعجز كبير ، وهبطت عملتها إلى مستوى الحضيض ، الأمر الذي يؤدي إلى التضخم ، ومن ثم ترتفع الأسعار ويعم الغلاء ، وينخفض سعر العملة في الخارج ، وتنزح رؤوس الأموال خارج البلاد.

ويذكر أهل الاختصاص أن من أهم أسباب التضخم : اختلال التوازن بين الاستهلاك والاستثمار ، فإذا كان الاستهلاك أكبر من الاستثمار فإن الطلب يرتفع ويؤدي إلى التضخم.

وقصارى القول أن اقتصاد الدولة المسلمة لا يستقر إلا إذا تحققت فيه العدالة والاقتصاد ، وكفت عنه أيدي العابثين بالأموال ، المبذرين لها .

٤ – أن الإسراف سبب لنزع البركة في المال .

فإن تبذيره تضييع له ، وهيهات البركة مع الضياع ، والفقر هو المحصلة النهائية.([1])

وحسب السَّرف الجماعي، أنه إذا حصل مع اختلاط المعايير والقيَم، وضَعف الوازع الديني والرَّدع القانوني، وعلو أهل المنكر على أهل المعروف والفضَل، حدَثت تجاوزات خطيرة طفَحت آثارها السيّئة على السطح، فظهرت في صُور شتَّى للإسراف بأنواعه الثلاثة، وقد ذكَرنا أمثلة منَه فيما أسلَفنا من البحث ما يغنينا عن تكراره هنا.

---

١)– الطريقي ، عبد الله " مرجع سابق " ص ٢٤ وما بعدها

من هنا فقد تضمنت الشريعة الإسلامية مجموعة من الأحكام والمبادئ العامة التى تحكم سلوك المسلم فردا أو جماعة في مجال الإنفاق بهدف تحقيق إشباع الحاجات الأصلية بدون سرف أو مخيلة غير متجاوز للقصد ، وتعتبر هذه الأحكام والمبادئ بمثابة الضوابط التي يلتزم بها المسلم عند اتخاذ قرار الإنفاق ، كما تعتبر المعايير والمقاييس لتقويم أدائه الإنفاقي وبيان التجاوزات أو المخالفات لتصويبها حتى يرجع إلى الرشد وإلى السلوك القويم . ويقصد بالضوابط الشرعية بصفة عامة بأنها الأحكام الكلية التي تنطبق على معظم الجزئيات موضوع التقويم ، ويقصد بها في هذا المقام ،مجموعة الأحكام والمبادئ الكلية التي تضبط سلوك المستهلك بصفة عامة ، ولقد اجتهد الفقهاء في استنباطها من المصادر الآتية :

- النصوص الشرعية من القرآن والسنة .
- قواعد الشريعة الإسلامية .
- مقاصد التشريع الإسلامي .
- اجتهادات أئمة الفقه من السلف .
- اجتهادات مجامع الفقه المعاصرة .

وتهدف هذه الضوابط إلى تحقيق المقاصد الآتية :

- بيان حكم الله في الأعمال والتصرفات .
- تعتبر المرشد الموصل إلى الحلال لإتباعه ومعرفة الحرام لاجتنابه .
- تعتبر المعيار لتقويم الأعمال والتصرفات الفعلية وبيان المخالفات للإقلاع عنها .
- تعتبر المرجعية لاتخاذ قرارات التصويب .

وتتسم هذه الضوابط بمجموعة من الخصائص من أهمها : الثبات والشمولية والاستمرارية والموضوعية والقابلية للتطبيق والقبول.([1]) وبهذا نخلص إلى أن حد

---

١)- شحاتة ، حسين " القيم التربوية والضوابط الشرعية للسلوك الاستهلاكي ص ١٧ بتصرف يسير .

الاسراف على المستوى المجتمعي يتحقق عند غياب العدالة وعدم المساواة وحين يصبح المال دولة بين الأغنياء دون ما سواهم .

طبيعة الضوابط الشرعية للسلوك الاستهلاكي في مجال المباحات (الواجبات)

لقد اجتهد فقهاء الاقتصاد الإسلامي في استنباط مجموعة من الضوابط الشرعية المستخلصة من فقه المعاملات والتي تحكم السلوك الاستهلاكي ، وتنقسم هذه الضوابط إلى مجموعتين : مجموعة تتعلق بالمباحات (الواجبات) ومجموعة تتعلق بتجنب المحرمات .

ويقصد بالضوابط الشرعية التي تتعلق بالمباحات : أنها التي يجب أن يكون سلوك المستهلك طبقاً لها ، أي من الواجبات ، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، ومن أهم هذه الضوابط ما يلى :

أولاً : الإنفاق فى المباح شرعاً (الحلال) .

يستشعر المستهلك المسلم بأن الإنفاق وفقاً لشرع الله عبادة وطاعة يثاب عليها ، وهذا يدفعه ويحثه أن يكون سلوكه مطابقاً لما أمر الله به ، وفى هذا الخصوص يقول الله تبارك وتعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ " (البقرة : ١٦٧) ، وأمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم تحرى الحلال وتجنب الحرام بصفة عامة ، فقال : " إن الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور متشبهات لا يعلمهم كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ..... الحديث(١) ويحكم هذا الضابط القاعدة الشرعية : الأصل فى المعاملات الحل ما لم يتعارض مع نص من الكتاب والسنة .

---

١)- البخاري ، ابو عبد الله " صحيح البخاري ، كتاب البيوع باب الحلال بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهات ٤/٧٢٤

ومن المنظور التربوى يحقق الإنفاق فى مجال الحلال إشباع نفسى معنوى للإنسان يتمثل فى الرضا والاطمئنان والبركة حيث أن الطاعات تجلب الأرزاق وأن الذنوب تمحقها (١) .

ثانياً : الإنفاق فى الطيبات .

لقد أمرنا سبحانه وتعالى أن يكون الإنفاق فى مجال الطيبات ، ودليل من الكتاب قول الله عز وجل : " ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ " (الأعراف : ١٥٧) ، وكذلك قوله عز وجل : " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " (الأعراف : ٣٢) ، ودليل ذلك من السنة النبويَة المباركةَ قول الرسولَ ﷺ صلى الله عليه وسلم " إن الله طيب لا يقبل إلاَّ طيبا " (٢) ، كما ورد فى هذا الخصوص قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقيل يا رسول الله : أرأيت شحومها ؟ فإنها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لا ، هو حرام ، ثم قال : قاتل الله اليهود إن الله حرم عليهم شحومها فجملوها ثم باعوها " (٣) .

ولقد حدد فقهاء المسلمين بعض الأجناس المحرمة (٤) منها على سبيل المثال : الخمور والميتة والخنزير والدم والنجاسات والدم والطباق (السجائر) والأصنام

---

١)- شحاتة ، حسين " مرجع سابق " ص ١٩

٢)- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ٤٠٧/٢ رقم ١٠١٥

٣)- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم كتاب المساقاة باب تحريم بيع الخمر والميتة والاصنام ١٢٣/٤ رقم ١٥٨٢

٤)- العسقلاني ، ابن حجر " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ٤/ ٤٩٧

والأوثان والصلبان وكتب الكفار وكل ما يفسد العقيدة ويدمر الأخلاق ويهلك البدن ، أى كل ما يتعارض مع مقاصد الشريعة الإسلامية وهى حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال .

فعلى المستهلك المسلم أن ينفق ماله فى شراء السلع والخدمات الطيبة والتى تعود عليه وعلى المجتمع الإسلامى بالنفع وأن يمتنع عن الإنفاق فى مجال الخبائث حتى لا يضيع ماله بدون منفعة معتبرة شرعاً .

ويتمثل البعد التربوي في التعامل في الحلال هو الالتزام بأوامر الله عز وجل وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم كما أنه يجنبه الخبائث فيه الخير الكثير والبركة من الله سبحانه وتعالى ، ويضاف إلى ذلك أيضاً احترام وتقدير المجتمع الذى يتمسك بالحلال الطيب .([1])

تحقيق مهم في ضابط الحلال المراد توجيه الانفاق اليه .

من أنواع الإسراف المباح:

المباح عند علماء الأصول هو: " ما أَذن الشارع في فعله وتَركه، وخلا من المدح أو الذم " ([2]) وزيادة في البيان والتوضيح نذكر هنا كلام الحافظ ابن حجر في شرحه للمقصود "بإضاعة المال" من قول النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: (إنَّ الله حرَّم عليكم عقوق الأُمهات، ومنْعا وهات، ووأْد البنات، وكَره لكم قيل وقال، وكثرةَ السؤال، وإضاعة المال) [3]، قال: والحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه:

الأول: إنفاقه في الوجوه المذمومة شرعا، فلا شكَّ في منعه.

الثاني: إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعا، فلا شكَّ في كونه مطلوبا بالشرط المذكور

---

١)– شحاتة ، حسين " القيم التربوية والضوابط الشرعية للسلوك الاستهلاكي "(مرجع سابق) ص ٢١

٢)– الشاطبي ، جلال الدين " الموافقات " ٣/ ١٣٥

٣)– النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم كتاب الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ٦/٢٣٢ رقم٥٩٣

الثالث: إنفاقه في المباحات بالأَصالة كملاذّ النفس، فهذا ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون على وجه يليق بحال المنفق وبقَدْر ماله، فهذا ليس بإسراف.

الثاني: ما لا يليق به عرفًا، وهو ينقسم أيضا إلى قسمين:

أحدهما: ما يكون لدَفْع مفسدة؛ إمَّا ناجزة، أو متوقَّعة، فهذا ليس بإسراف.

الثاني: ما لا يكون في شيء من ذلك، فالجمهور على أنه إسراف" (١) .

ومن ثَمَّ يتبيَّن لنا أنَّ المباح في الشرع ليس على إطلاقه في كلِ الأعمال، بل هو نوعان:

١)- العسقلاني ، ابن حجر " فتح الباري " ٦/ ٣٤٥

النوع الأول:

أعمال أباحتها الشريعة، وجاز الزيادة فيها دون تقييد أو تحديد؛ مثل: ذكر الله، وتلاوة القرآن، والدعاء والاستغفار، وتعلُّم العلم الشرعي... إلخ، فهذا وغيره – مما دلَّ عليه الشرع – مباح وليس فيه سرف.

ومن أدلة هذا النوع من الكتاب ما يلي:

• قال تعالى عن الذّكر: ﴿ واذْكُروا اللَّه كَثيراً لَعَلَّكُم تُفْلحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

• وقال تعالى عن طلب العلم واستذكاره: ﴿ وقُل ربِّ زِدْني علْماً ﴾ [طه: ١١٤].

فمثل هذه الأعمال وغيرها – التي أباحها الشرع – لَا إِسْرَافَ فيها البتَّة.

النوع الثاني:

• ما أباحته الشريعة ما لَم يَخرج عن الحدّ الذي ينقله من دائرة المباح للمكروه؛ كالصدقات بالأموال، والجود بها على الفقراءَ والمحتاجين، وليس في ذلك سرف.

ويجب ملاحظة أنَّ الفارق بين السَّرف والجود، أنَّ السَّرف تبذير للمال من غير ضرورة شرعيَّة أو دنيويَّة؛ مباحة كانت، أو غير مباحة، وأمَّا الجود فهو وضْع المال في موضعه المشروع والمباح.

ومن أدلة هذا النوع من القرآن والسُّنة:

• قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَات فَنعمَّا هي وإِنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الْفُقَراء فَهو خير لَكُم ويُكَفِّرُ عنْكُم من سيِّئاتكُمْ واللَّهَ بما تَعملُونَ خبير ﴾ [البقرة: ٢٧١].

• ومن السُّنة ما روَي عنَ سَعد بن أَبي وقَّاص – رضي الله تعالى عنه – قال: قلت: يا رسول الله، أنا ذو مال، ولا يرثني إلاَّ ابنة لي واحدة، أفأتصدَّق بثُلُثي مالي؟ قال: ((لا))، قلت: أفأتصدَّق بشطره؟ قال: ((لا))، قلت: أفأتصدَّق بثلُثه؟ قال: (الثُّلُث، والثُّلُث كثير؛ إنَّك إن تَذَر ورثتك أغنياء، خير من أن تَذَرهم عالةً يتكفَّفون الناس).([1])

---

١)- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم كتاب الوصية باب الوصية بالثلث ٣٤٥/٥ رقم ١٦٢٩

قال النووي في شرح الحديث ما مُختصره:

"قوله: "وأنا ذو مال" دليل على إباحة جَمْع المال؛ لأنَّ هذه الصيغة لا تُستعمل في العرف إلاَّ لمال كثير، قوله: "ولا يرثني إلا ابنة لي"؛ أي: ولا يرثني من الولد وخواص الورثة، وإلاَّ فقد كان له عصبة، وقيل: معناه: لا يرثني من أصحاب الفروض، قوله: "أفأتصدَّق بثُلثي مالي؟"، قال: ((لا))، قلت: أفأتصدَّق بشطره، قال: ((لا، الثُّلث والثُّلث كثير))؛ أي: يكفيك الثُّلث، وفي هذا الحديث مراعاة العدل بين الورثة والوصيَّة؛ قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: إن كان الورثة أغنياء، اسْتُحبَّ أن يوصي بالثُّلث تبرُّعا، وإن كانوا فقراء، اسْتُحبَّ أن ينقص من الثُّلث، وأجْمعَ العلماء في هذه الأعصار على أنَّ من له وارث لا تَنْفُذ وصيَّته بزيادة على الثُّلث إلاَّ بإجازته، وأجْمعوا على نفوذها في جميع المال، وأمَّا من لا وارثَ له، فمذهبنا ومذهب الجمهور أنه لا تَصحُّ وصيَّته فيما زاد على الثُّلث، وجوَّزَه أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وروي عن علي وابن مسعود – رضي الله عنهما.

وأمَّا قوله: "أفأ تصدَّق بثُلثي مالي؟"، فيحتمل أنه أراد بالصدقة: الوصيَّة، ويحتمل أنه أراد: الصدقة المنجزة، وهما عندنا وعند العلماء كافة سواء، لا يَنْفُذ ما زاد على الثُّلث إلا برضا الوارث، وقوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إنَّك إن تَذَر ورثتك أغنياء))، قال – رحمه الله –:

وفي هذا الحديث حثٌّ على صلة الأرحام، والإحسان إلى الأقارب، والشفقة على الورثة، وأن صلة القريب الأقرب والإحسان إليه أفضل من الأبعد، واستدلَّ به بعضهم على ترجيح الغني على الفقير (١) ا.هـ

وقد يظنُّ القارئ أنَّ هناك تعارضا بين قصة أبي بكر الذي تصدَّق فيها بكل ماله وحديث سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – الذي ينهاه النبي – صلى الله عليه وسلم – عن التصدُّق بأكثر من الثُّلث، وعلى الرغم من أننا في مادة هذا

١)– النووي ، شرف الدين " صحيح مسلم بشرح النووي " ٥ / ١٢٢

البحث نطرح موضوع الإسراف؛ لأننا أثَرنا هذه النقطة بالاستشهاد بالحديثين، فإنه من الواجب رفْع الإشكال لدى القارئ الكريم، فها هو الطبري والحافظ ابن حجر – رحمهما الله – قد فنَّدا شبهة التعارض، فقد قال ابن حجر (١): "قال الجمهور: من تصدَّق بماله كله في صحَّة بدنه وعقله؛ حيث لا دين عليه، وكان صبورا على الضيق ، ولا عيال له، أو له عيال يصبرون أيضا – فهو جائز، فإن فُقد شيء من هذه الشروط، كُره، وقال بعضهم: هو مردود"، ثم قال: "وقال آخرون: يجوز من الثُّلث ويردُّ عليه الثُّلثان، وهو قول الأوزاعي، ومكحول، وعن مكحول أيضا يردُّ ما زاد على النصف، قال الطبري: والصواب عندنا الأول من حيث الجواز، والمختار من حيث الاستحباب أن يُجعل ذلك من الثُّلث؛ جمعا بين قصة أبي بكر وحديث كعب، والله أعلم"؛ ا .هـ.

ثالثاً : الاعتدال في الإنفاق .

من قواعد الإنفاق في الإسلام " الوسطية " دون إسراف أو تقتير ، لأن في الإسراف مفسدة للمال وللنفس وللمجتمع ، وكذلك الوضع في التقتير ففيه حبس وتجميد للمال عن وظيفته التي خلقها الله له وكلاهما بسبب خللاً في النظام الاقتصادي ، وأصل هذا الأساس من القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى في وصف عباده المؤمنين : " والَّذين إذَا أَنفَقُوا لَمْ يسرفُوا ولَم يقْتروا وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَواماً " (الفرقان : ٦٧) وقوله عز وجل كذلك : " ولاَ تَجْعَلْ يدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقكَ ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً " . (الإسراء : ٢٩) ، فتحضَ هذهَ الآيات على الوسطية في الإنفاق .

ولقد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم نطاق الاعتدال والوسيطة في الحديث الشريف : " كل ما شئت ، واشرب ما شئت ، والبس ما شئت ، ما

---

١)– العسقلاني ، ابن حجر " فتح الباري " ٦/ ٣٧٧ وما بعدها ، وانظر : الطبري ، محمد بن جرير " جامع البيان " ٢/٢٢٣

أخطأتك اثنتان : سرف ومخيلة " ([1]) ، فالأصل فى الإنفاق الحل ما دام لا يتجاوز الإسراف والتقتير وكان خالياً من المظهرية والخيلاء .

ويعتبر التوسط والاعتدال بين الحد الأدنى للإنفاق الذى دونه يكون التقتير ، وبين الحد الأقصى الذى فوقه يكون الإسراف ، وفى هذا الخصوص يقول الفخر الرازى : " لكل خلق طرفى : إفراط وتفريط وهما مذمومان فالتقتير إفراط فى الإمساك ، والإسراف إفراط فى الإنفاق ، وهما مذمومان ، والخلق الفاضل هو العدل والوسط ([2])

ونخلص من الأدلة السابقة أن الإسلام يسع كل أنماط الاستهلاك حسب سعة كل مستهلك فى إطار عدم التجاوز إلى التقتير أو الإسراف وفى هذا مرونة إشباع الرغبات المحدودة .

ويتمثل البعد التربوي لهذا الأساس هو كبح هوى النفس الشحيحة المقترة وكذلك النفس الشرحة المسرفة ، وهذا ما يجب أن نربى أولادنا وأنفسنا عليه سواء على مستوى الإنفاق الفردي أو الإنفاق الأسرى أو الإنفاق الحكومي .

---

١)- ابن أبي شيبة ، محمد " المصنف " كتاب اللباس والزينة باب من قال البس ماشئت ما أخطأك سرف ولا مخيلة ٢٨/٦ رقم ٣٤٢٩

٢) الرازي ، فخر الدين " مفاتيح الغيب " ١١٢/٣

رابعاً : الالتزام بسلم الأولويات الإسلامية .

يجب أن يرتب المستهلك المسلم أولويات الإنفاق طبقاً لسلم الأولويات الإسلامية التي وضعها الفقهاء وهى : الضروريات فالحاجيات فالتحسينات ، وتحليل ذلك على النحو التالي :

(أ) – الإنفاق على الضروريات : ويقصد بها ما ينفق لقوام الناس والمخلوقات ويحقق المقاصد الشرعية ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها ، مثل نفقات المأكل والمشرب والمسكن والصحة والأمن والعلم والزواج .

(ب) – الإنفاق على الحاجيات : ويقصد بها ما ينفق على ما يحتاجه الناس لجعل حياتهم ميسرة وتخفف من المشاق والمتاعب ، ولا يجب الإنفاق على الحاجيات إلاّ بعد استيفاء مطالب الضروريات وهى أيضاً تتعلق بالمقاصد الشرعية .

(ج) – الإنفاق على التحسينات : وتتمثل في بنود النفقات التي تجعل حياة الإنسان رغدة طيبة وعلى أحسن حال عن حالة الضروريات والحاجيات ، ولا يجب الإنفاق عليها إلاّ بعد استكمال نفقات الضروريات والحاجيات .

ومن ثم يجب على الأفراد والحكومات الالتزام بهذه الأولويات عند الإنفاق لتحقيق مقاصد الشريعة ، ومن ناحية أخرى لا يجوز إنفاق المال فيما يعرض هذه المقاصد للهلاك والضرر مثل شراء المدمنات والمكيفات والدخان والخمور وشراء الأفلام الفاسدة وما فى حكم ذلك .

ويتطلب تطبيق هذا الضابط أن يقوم الفرد والحكومة بحصر النفقات وتقسيمها إلى ثلاث مجموعات حسب الأولويات ثم تقدير الإيرادات المتوقعة وفى ضوء ذلك يتم ترتيب بنود الإنفاق ، وهذا يجنب الأفراد والحكومة معظم المشاكل الناجمة عن الإسراف والتبذير في بنود ليست من الضروريات والحاجيات .

ويتمثل البعد التربوي لهذا الأساس في تربية النفس على النظام والترتيب فى ضوء الإمكانيات والطاقات المتاحة والاعتماد على الذات بقدر الإمكان ، ولا يقترض إلاّ لضرورة أو حاجة كما يحمى الإنسان من هموم الديون بدون سبب معتبر

شرعاً ، كما يوجه المسلم نحو الموازنة بين الكسب والإنفاق والادخار لوقت الحاجة .(١)

الضوابط الشرعية للسلوك الاستهلاكي التي تتعلق بتجنب المحرمات .

لقد استنبط الفقهاء مجموعة من الضوابط الشرعية للسلوك الاستهلاكي تتعلق بالمنهى عنه شرعاً وتتمثل في المحرمات الواجب تجنبها لأنها تتعارض مع مقاصد الشريعة الإسلامية وهى حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، ومن أهم هذه الضوابط :

أولاً : تجنب التقتير .

يقصد بالتقتير اصطلاحاً في مجال الإنفاق هو التضييق عن الواجب أن يكون فى ظل الظروف العادية ، وبلغة الاقتصاد والمحاسبة هو الإنفاق دون المعيار أو النمط الواجب أن يكون .

ولقد نهى الله سبحانه وتعالى عن التقتير في قوله الله تبارك وتعالى : " والَّذين إذَا أَنفَقُوا لَم يسرفُوا ولَم يقْتروا وكَانَ بين ذَلكَ قَواماً " (الفرقان : ٦٧) ، ولقد ورد في تفسير هذه الآية ما يلى : يقول ابن كثيرَ : " أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكلفونهم عدلاً ....." (٢) ، ويوضح القرآن الكريم أن النفس البشرية تخشى الفقر والعوزة ، فهي مقترة بطبيعتها ودليل ذلك قول الله عز وجل :" قُل لَّو أَنتم تَملكُونَ خَزائن رَحْمَة ربي إذاً لَّأَمسكْتُم خشْيَة الإنفَاق وكَانَ الإنسانُ قَتوراً " (الإسراء : ١٠٠) وقولَه تبارك وتعالى : " ولاَ تَجْعل يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقكَ " (الإسراء : ٢٩) "

---

١)- شحاتة ، حسين " مرجع سابق " ص ٢٤ وما بعدها

٢)- ابن كثير ، الحافظ " تفسير القرآن العظيم " ٣/٣٤٥

ويعتبر التقتير من أمراض النفس البشرية وهو الشح الذى نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : " اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم " (١) .

ويقول علماء الاقتصاد الإسلامي أن التقتير يؤدى إلى حدوث الكساد الاقتصادي حيث ينكمش الطلب على السلع والخدمات وهذا بدوره يقود إلى سلسلة من المضاعفات تنتهى بانخفاض الإنتاج وتقليص العمالة وزيادة البطالة (٢) ، فهناك جد أدنى للإنفاق حتى ولو كان الدخل لا يكفى ويعوض الفرق من خلال الزكاة والصدقات ونحوها .

ويتمثل الجانب التربوي في تحريم التقتير أنه يحمى النفس البشرية من آفة الشح وظلمها لصاحبها وحرمانه مما أحل الله له ، كما أنه يحمى المجتمع من الهلاك ، وهذا ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : " إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا " (٣) ، ويتضح من ذلك أنه يجب تربية النفس البشرية على الوسطية والاعتدال وتجنبها التقتير والبخل والشح حتى لا يترتب على ذلك ضرراً بالإنسان وبالمجتمع ، كما أن التقتير أحياناً يدفع الأولاد إلى مفاسد الأخلاق ومنها السرقة .

ثانياً : تجنب الإسراف .

يقصد بالإسراف هو تجاوز الحد الأقصى للإنفاق المباح المسموح به في ضوء الظروف والإمكانيات المتاحة للمستهلك ، ودليل ذلك من القرآن قول الله تبارك وتعالى : " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً " (الفرقان : ٦٧) وقوله عزَ وجلَ : " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " (الأعراف : ٣١) وقوله سبحانه وتعالى : " كلوا من

---

١)- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم ٦/ ٢٢٣ رقم ٢٥٧٧

٢)- شحاتة ، حسين " اقتصاد البيت المسلم في ضوء الشريعة الاسلامية " ص ٥٠

٣)- سبق تخريجه .

ثَمَره إذَا أَثْمَر وآتوا حقَّه يوم حَصَاده ولاَ تُسرفُوا إنَّه لاَ يُحبُّ المسْرفينَ " (الأنعام : ١٤١) وَلَقَد ورد عن المفسرين أن كلمَةَ سرف تعنى مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وإن كان من حلال وقالوا أيضاً هو الزيادة عن قدر الحاجة ، أي عن المعيار أو النمط الواجب أن يكون ،

ولقد ورد في السنة النبوية الشريفة أحاديث عن النهى عن السرف منها ما سبق ذكره مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " كل ما شئت ، واشرب ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك اثنتان : سرف ومخيلة "([1]).

والعلة من تحريم الإسراف أنه يبدد الأموال بدون منفعة معتبرة شرعاً ، ومن المنظور الاقتصادي قد يقود الإسراف إلى التضخم والاعتداء على حقوق الأجيال القادمة ، ومن المنظور الطبي فإنه يؤدى إلى الإضرار بالبدن ، ومن المنظور الاجتماعي يقود الإسراف إلى الفساد الاجتماعي ، فإن كان عند المسرف سعة من المال فليوجهها إلى الفقراء الذين لا يجدون الضروريات والحاجيات في صورة زكاة أو صدقات أو وقف أو وصايا .

ويتمثل البعد التربوي لتحريم الإسراف هو حماية النفس البشرية من الشر ، وكبح هواها من أن تطغى فتضل وتشقى ، كما يربيها أيضاً على حفظ حقوق الأجيال وتجنب مصاحبة المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، بالإضافة إلى ذلك استشعار المحاسبة الأخروية أمام الله للمحاسبة عن هذا الإسراف وتبديد نعمه عز وجل ، وصدق الله العظيم القائل : " وأَنَّ المسْرفينَ هم أَصحاب النَّار " (غافر : ٤٣) ، ولقد وصف الله سبحانه وتعالى فرعون بصَفة المسرفين فقال جل شأنه : " ولَقَدْ نَجَّينَا بنِي إسْرائيلَ منَ العذَاب المهينِ ، من فرْعَوْنَ إنَّه كَانَ عَالياً منَ المسْرفينَ " (الدخان : ٣٠ ـ ٣١) .

ثالثاً : تجَنب التبذير .

---

١) – سبق تخريجه .

وكما سبق يقصد بالتبذير الإنفاق على المحرمات والخبائث التي نهى الله عنها وهو نوع من أنواع الإسراف ، وأكثر منه جرما ، ولقد وردت بعض الآيات التي تندد بالمبذرين وتجعلهم من إخوان الشياطين ، مثل قوله الله تبارك وتعالى : " وآتِ ذَا القُربى حقَّه والْمسكِينَ وابنَ السَّبيلِ ولاَ تُبَذِّرْ تبْذيراً ، إنَّ المبَذِّرين كَانُوا إخْوانَ الشَّياطين وكَانَ الشَّيطَانُ لربِّه كَفُوراً " (الإسراء : ٢٦-٢٧) ، فالمبَذر ينفق ماله في معصية الله عز وجل متبعاً هَوَى نفسه التي تسير في طريق الشيطان الرجيم .

ويعتبر التبذير ضياعاً للمال بدون منفعة معتبرة شرعاً ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك في قوله : " ..... وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال " (١) .

ولا يختلف البعد الاقتصادي والاجتماعي والصحي والتربوي لتحريم التبذير عن ما سبق بيانه في حالة الإسراف ، فكلاهما تبديد وضياع للمال بدون منفعة كما أنهما من أبواب الترف والفساد في الأرض على النحو الوارد في البند التالي :

رابعاً : تجنب النفقات الترفيهية والمظهرية .

تحرم الشريعة الإسلامية النفقات الترفيهية الزائدة عن الحد المسموح به شرعا ، أو عن اللازمة ضرورة بحكم التنفيس عن القلق والآلام ومعالجة الاضرابات النفسية .. ونحوها ، بصفة قطعية لأنها تؤدى إلى الفساد والهلاك وهذا التحريم يخص الفرد في ماله الخاص والدولة في الأموال العامة ، وأصل ذلك من القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى : وإذَا أَردْنَا أَن نُّهْلكَ قَريةً أَمرنَا مُتْرفيهَا ففَسقُوا فيهَا فَحقَّ علَيها القَولُ فَدمَّرنَاها تَدْميراً " (الإسراء : ١٦) ، وقوله جَل شأنه : "وما أَرسلْنَا في قَرْيَة منّ نَّذير إلاَّ قَالَ مترفُوها إنَّا بمَا أُرْسلْتُم به كَافرونَ " (سبأ : ٣٤) ويصف القرآن هَؤلاَء المترفين بصفة الكافرين والكاذبين فيقول جل شأنه : " الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بلقَاء الآخرة وأَتْرفْنَاهم في الحيَاة الدُّنْيا " (المؤمنون : ٣٣) .

---

١)- سبق تخريجه .

والسنة النبوية حافلة بالأحاديث التي تحذر المستهلك المسلم من حياة الترف وإنفاق المال في الملذات والتفاخر والخيلاء ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ، ما يخالطه إسراف ومخيلة " (١) ،

أما واقعنا الآن فقد ابتعدنا عن شريعة الإسلام وأصبح الترف والمظهر والتباهي والتفاخر هو الأساس الذى اعتاده الناس وظنوا أن العرف والمعتاد هو ذلك ، فتهتم المرأة عند إعداد الولائم بالمحمر والمجمر والمشمر والمكسرات والعصائر وغيرها ، وربما وهى على يقين تام بأن زوجها قد اقترض هذا المال من الغير ، بل والأدهى والأمر أن هناك من الحكومات ما تهتم بالمظهريات والإنفاق الترفي ويوجد في ميزانيتها العجز الذى يقدر بالمليارات ، وعليها قروض ثقيلة يحتاج سدادها إلى أحقاف من الأزمان .

لذلك يجب على المسلم أن يبتعد عن كل سبل الترف في سلوكه الاستهلاكي حتى لا يكون ذلك إحباطاً لعمله وخسراناً له في الدنيا والآخرة ، وعلى مستوى البيت يجب على المرأة أن توقن أن الترف والمظهرية يؤديان إلى الاستدانة والاستدانة تسبب الهم والغم والحزن كما أن الاستدانة أحيانا تقود إلى الكسب الحرام .

ويرى رجال الاقتصاد الإسلامي أن الإنفاق الترفي والمظهري على مستوى الفرد والمنزل والدولة يقود إلى الفساد الاقتصادي وإهدار الموارد بدون قيمة مضافة ويعوق التنمية الاقتصادية ، كما أن للترف والبذخ جوانب اجتماعية سيئة منها الفساد والهلاك ،و التاريخ يعطى نماذج بارزة عن فساد الحكام وظلمهم عندما كان سلوكهم الاستهلاكي هو الترف والبذخ ، ولقد أشار الله إلى ذلك فى قوله : " وإذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً " (الإسراء : ١٦) .

ويتمثل البعد التربوي لتحريم الإنفاق الترفي والمظهري في كبح هوى النفس البشرية والمحافظة على مشاعر الفقراء والمساكين وتحقيق العدل الاجتماعي بأن توجه

---

١)- سبق تخريجه .

الأموال التي تنفق في الترف إلى الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل والمرضى وغيرهم في صورة زكاة أو صدقات أو وصايا .([1])

خامساً : تجنب نفقات التقليد والبدع المخالفة لشرع الله .

لقد أمرنا الله تعالى أن نتجنب تقليد غير المسلمين في سننهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تخالف أحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية ، وحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في حجر ضب لدخلتموه ، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ، قال: فمن "([2])

وتأسيساً على ذلك يجب على المستهلك المسلم تجنب كافة النفقات التي يكون فيها تقليد لمجتمعات لها عادات وتقاليد تخالف القيم والأخلاق والعادات والتقاليد الإسلامية ، كما يجب على الحكومات الإسلامية أن تراقب كافة أجهزة الإعلام وكذلك المجلات والجرائد التي تدفع الشباب دفعاً إلى مجاراة شباب الغرب المنحل في تقاليده السيئة، ويسبب إرهاقاً لميزانية البيت والدولة ومدخلاً لفساد العقيدة واضمحلال الأخلاق ، وفى هذا الزمان ، في ظل العولمة والجات والقنوات الفضائية ، نرى معظم الشباب والفتيات يقلدون شباب الفرنجة ومن في حكمهم في الطعام والشراب والملبس والسلوك ..... وهذا أدى إلى أثار سلبية على أخلاقهم ، كما ترتب على ذلك زيادة الطلب على الوارد من الخارج و هذا قد سبب كساداً في الصناعات الوطنية وانتشار البطالة .

ويتمثل البعد التربوي لذلك في أن الإنسان يقتدى بالصالحين والصالحات ولا يقتدى بالطالحين والطالحات حتى يشعر بالولاء والانتماء للدين وللوطن .

---

١)- شحاتة ، حسين " الأرزاق بين بركة الطاعات ومحق السيئات " ص ٣٩

٢)- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم كتاب العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٢٣٥/٢ رقم ٢٦٦٩

سادساً : تجنب التعامل مع أعداء الدين والوطن .

عندما يقدم المستهلك المسلم على شراء سلعة أو الحصول على خدمة يجب عليه أولاً التعامل مع المواطن دعماً للوطن وللأمة الإسلامية ، ولا يجوز له التعامل مع الأعداء الحربيين بكافة فئاتهم وجنسياتهم ومللهم لأنه بذلك يروج بضاعتهم ، وينمى أموالهم ويدعم اقتصادهم ، ويقوى منافستهم للسلع الوطنية ، فالأقربون أولى بالمعروف ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض

ولهذا الضابط أدلة من القرآن الكريم منها قول الله تبارك وتعالى : : " إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (الممتحنة : ٩) ، ولقد حَثَ الرسول صلى الله عليه وسلم علىَ التعامل أولاً مع المؤمنين ، فقال : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " (١)

والبعد التربوي لهذا الضابط هو السمع والطاعة لأوامر الله سبحانه وتعالى والولاء والانتماء للوطن ووقفة مع النفس لنصرة المجاهدين والجهاد ضد المعتدين فالمقاطعة لأعداء جهاد وفريضة شرعية وضرورة وطنية .

المبحث الثاني : الاسراف وأثره على النهوض والانهيار الحضاريين وتحته فروع :

من المعروف في الفكر الإسلامي أنّ حركة الوجود تخضع لسنن ونواميس إلهية، ولقد طرح القرآن الكريم إشكالية السنن التي تحكم حركة الوجود حفظاً له من الفوضى والفساد، ولما كان عمران الأرض مقصداً من مقاصد الرسالات السَّماوية كانت سنن المداولة والمدافعة والاستبدال والاستدراج وغيرها من السنن الحضارية هي الحاكمة على الواقع، ومن ثم فإنّ السَّيرورة الحضارية للأفراد والأمم محكومة بهذه

---

١)- البخاري ، محمد بن اسماعيل "صحيح البخاري كتاب المظالم باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يخذله ١٢٣/٣ رقم ٢٣١٠

السنن والقوانين المضطردة، وهي سنن محايدة: قال تعالى " كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا" (الإسراء:٢٠).

وهذه السنن المحايدة تعتبر سنناً جزئية تعطي كل من يوظّفها على قدر سعيه في تسخيرها والتعامل معها. غير أنّ هناك سنناً كُلِّيَّة هي السنن التي جعلها الله مفتاحاً لقيام الحضارات بمفهومها الشامل كسنَّة الإيمان: ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (الأعراف:٩٦).

وما ينبغي ملاحظته أنه لا غنى للسنن الجزئية عن السنن الكلِّيَّة ولا غنى للسنن الكلية عن السنن الجزئية، فحضارة تؤمن بالله ولكنها لا تكتشف سنن الآفاق والأنفس –وهي سنن جزئية– هي حضارة عاطلة؛ وحضارة تستنطق السنن الجزئية يوماً بعد يوم –كالحضارة الغربية– دون أن تهتدي للإيمان الصحيح –وهو سنة كلية– هي حضارة تائهة، ضارة لنفسها نافعة لغيرها عند اكتشافها لسنن الرقي المادي . وهذا يعني أنّ لهذه الدنيا مقاييسها التي تجري على المؤمن والكافر، وفي كل أمر جعل الله له في هذا الكون الحسي –عالم الشهادة– سنة يجري عليها؛ والإنسان مهما تكن عقيدته ومهما تكن نيته وباعثه يمكن أن يستثمر هذا الكون ويستفيد من هذه السنن قال تعالى " ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها" (آل عمران:١٤٥) ،وأدوات الإنسان في هذه الحياة المادية أو الطبيعية وتسييرها وتسخيرها حواسه، ودليله عقله .

إنّ محور حركة الإنسان في هذا الكون يدور في إطار قانون الابتلاء، فقد خلق الله الإنسان لعبادته، وفضّله على العالمين، وسخر له موجودات هذا الكون لتعينه على أداء رسالته، وأوجب عليه ارتفاق هذا الكون وعمارته، ونهاه عن الإفساد فيه، فقال تعالى: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها (الأعراف:٨٥).

وعلى هذا الأساس، فإنّ الدارس لعوامل قيام وسقوط الأمم والحضارات يلحظ أنّها تكمن في صميم الموقف البشري نفسه لا في الطبيعة أو العلاقات المادية، إنما في إطار الإرادة الإنسانية، وهذا يجئ بطبيعة الحال امتداداً لنظرية الإسلام

الأساسية في استخلاف الإنسان في الأرض لأداء دوره الحضاري فيها، وما دام هذا الإنسان اختار برفضه لتعاليم الله التي وعد بها آدم، عليه السلام، وذريته لاستكمال مهمتهم الأرضية الطريق المعكوس فمعنى هذا أن يقف على النقيض من دوره المرسوم . ومن ثم فإنّ أسباب تقدّم المجتمع وأسباب تأخره وانحطاطه تعود للإنسان نفسه .([1])

الفرع الاول : عوامل النهوض الحضاري في الاسلام

عند إرادة النهوض الحضاري بأمة من الأمم إلى مدارج الكمال، يحتاج القادة والمصلحون إلى مقومات تقوي أساس عملية النهوض وتضمن سلامة المسير ، وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهو يتحدث عن الأرضية التي تبذر فيها بذور الرُّقي والانحطاط حيث أكدّ أن أي تغيير في عالم الشهادة يبدأ من نفوس النّاس، سواء كان ذلك نحو الأحسن أو نحو الأسوأ، ففي سورة (الرعد:١١)قوله تعالى " ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ الرعد: ١١ وفي سورة (الأنفال:٥٣) قوله تعالى "﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال: ٥٣ وصورة ذلك أنّ الانقلاب إلى الرُّقي أو الانحطاط له درجتان:

الأولى: درجة الانقلاب الذهني أو النفسي.

والثانية: درجة الانقلاب العملي أو الخلقي.

والأول يتعلق بالتغيير الداخلي، والثاني يتعلق بالتغيير الخارجي، أي أنّ الأمة إذا تدرجت إلى الرُّقي فإنّ إصلاح القوى الداخلية يتحقّق في البداية، وتتغير الأفكار والأحاسيس والتصورات للحياة ثم تنشأ الجواهر، وحينما تصاب أمة بالذل والنكبة

---

١)– الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة " ص ٢٦٧ وما بعدها بتصرف يسير .

تفسد أولاً قواها الدَّاخلية ويتغيرَّ الفكر والنظم ثم تنشأ الجراثيم التي تقضي على أهلية الحياة با لتدرج كذلك. أي أنّ بقاء الأمة مرهون بصلاحها داخلياً أولاً ثم خارجياً بعد ذلك. وفناؤها مرهون بفساد نفوسها أولاً ثمّ فساد أعمالها بعد ذلك، فسنة الله في خلقه أنّ الصالح يبقى؛ لأنّ فيه للبشرية نفعاً، وغير الصالح لا يبقى لأنه لا نفع فيه قال تعالى " ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ الرعد: ١٧ ([1])

وهذا التغيير الداخلي للأنفس هو ما تشير إلى إليه آيات الذكر الحكيم ويمكننا تسميتها بمقومات النهوض الحضاري ومن أهمها ما يلي :

١- القيم الاخلاقية والروحية

إنّ هذه الحضارة كانت مبنية على أساس القيم الأخلاقية والروحية، لا على المقاييس المادية. فكانت قيمة (عبادة اللَّه) هي السائدة في هذه الحضارة، لا قيمة الخضوع للجبت والطاغوت؛ وعلى قيمة الأخوة وانعدام التفاضل إلاّ بالتقوى، لا على العنصريات والعصبيات. فلقد قاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أناساً ينتمون إلى قبائل مختلفة في شبه الجزيرة العربية، فكان القرشي إلى جانب الخزرجي، وهذا إلى جانب الأوسي وهكذا.. فكانت الافضليات والأولويات العشائرية معدومة، بل والأكثر من ذلك إنّ مجموعات أخرى كانت تجاهد جنباً إلى جنب مع العرب ممن تنتمي إلى عناصر أخرى كاليهود الذين من اللَّه تعالى عليهم بالإسلام؛ والروم، والفرس بعد ذلك.

وهكذا فإنّ الجميع كانوا يُحكمون بعلاقة واحدة، هي علاقة الإيمان وتوحيد اللَّه عز وجل، لا علاقة الدم أو اللغة أو الأرض وما إلى ذلك من علائق طارئة، ولذلك فإنّ العمل الصالح كان ينمو في هذا المجتمع. في حين إذا كانت ورائي عشيرة تساعدني وتحميني، سواء كنت خاطئاً أم على حق، أو كنت عالماً أم جاهلاً، وعادلاً

١)- الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة " ص ٢٧٢

أم ظالماً.. عندما أعرف أن العشيرة ستحميني في كل الأوقات والظروف، فحينئذ لا فرق بالنسبة لي بين أن أعمل صالحاً أو طالحاً، ولذلك فإنّ الإنسان سيختار في هذه الحالة العمل الطالح، والكسل والجهل، والتقاعس عن العمل الصالح على الهمة والنشاط والعلم والفضيلة.. أما عندما أدرك أنّ عملي الصالح هو الذي سيحميني فحينئذ سأتحرك باتجاه العلم، والعمل، والعدالة.. ومن الطبيعي إن هذا المجتمع الذي يتسابق فيه الناس نحو الفضيلة والعلم والعمل الصالح سينمو، ويتحرك([1])

٢- التكامل في الحقّ والعدالة

إنّ هذا المجتمع كان مجتمع التكامل في الحق والعدالة، قبل أن يكون مجتمع التنابز والتناقض. فقد كان الجميع فيه يشعرون أنّ تقدّم أي واحد منهم يعني تقدّمهم، ورفعة أي واحد منهم تعني رفعتهم. لذلك كانوا يعملون ليس من أجل أن يرتفعوا هم فقط، وإنّما من أجل أن يرتفع الآخرون أيضاً. فكان هذا الشعور هو السائد الذي جعل هذا المجتمع مجتمعاً متكاملاً منسجماً، يشعر الفرد فيه بانتمائه إلى المجتمع أكثر من شعوره بالأنانية والفردية. قال تعالى : " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " المائدة : ٨

٣- استبعاد المصالح الشخصية

كانت الدعوة في هذا المجتمع مقصورة على العمل الصالح، لا على المصالح والمنافع الشخصية. فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صبغة هذا المجتمع؛ فلم يكونوا يكتفون بأن يقولوا خيراً للآخرين، ويقدّمون النصائح اللفظية لهم، بل كانوا يدفعونهم إلى المعروف دفعاً، ويسحبونهم من طريق المنكر سحباً. فكانت الجادّة أمام هذا المجتمع مستقيمة واضحة يعرفها الجميع، ويتواصون بها. ويصور ذلك المعنى قوله تعالى " ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ

---

١)- المدرسي ، السيد محمد " الحضارة الاسلامية آفاق وتطلعات " ص ٢١٦

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾هود: ٢٩ ،وهكذا شأن المصلحين المخلصين دائما لا يلتفتون إلى المنافع الشخصية فأجرهم على الله.

هذه هي الميزات الثلاث في المجتمع الرسالي ، وهي – كما أتصور – ملازمة لكل مجتمع حين تقدّمه، ونهوضه؛ فلا تستطيع أي حضارة أن تنمو، وتتقدّم إلاّ بها، وفي حالة انعدامها (أي انعدام هذه المزايا) فانّ مصير هذه الحضارات سيؤول إلى الدمار والانقراض.([1])

وقبل أن تدمر هذه الحضارات يبعث إليها الرسل والأنبياء والمصلحون؛ أي عندما تجنح تلك المجتمعات نحو الانحدار ليوقفوا هذا التدهور والهبوط سواء نجحوا في هذه المهمة أم لم ينجحوا فيها. ولذلك فانّ القرآن الكريم يركّز على هذه المراحل الزمنية الهامة والخطيرة، ويطلب منّا أن نعتبر بها. فالقرآن الكريم عندما يتحدّث عن مجتمع قوم نوح مثلا فانّه لايحدّثنا عن مرحلة تقدّم هذا المجتمع، بل عن مرحلة تدهوره وطغيانه، وهكذا الحال بالنسبة إلى قوم لوط، وعاد، وثمود، ومدين...

حضارة سادت ثمّ بادت

سنتحدّث عن مجتمع مدين الذي يقول عنه القرآن الكريم: (وإِلَى مدْين أَخاهم شعيباً)(الأعراف/٨٥).وكانت الكلمة الأولى التي وجهها هذا النبيَ إلى قومه أن قال لهم: (يا قَوْم اعبدوا الله مالَكُم منْ إِلَه غَيره) (الاعراف/٨٥). وهذه الكلمة تعني إزالة القيم الاسَطورية الجاهلية المتخلّفة، واستبدالها بقيمة واحدة هي قيمة (عبادة اللَّه)، والاتّصال به وحده. فنحن عندما نعبد اللَّه تعالى فإننا سوف نعزف عن عبادة القيم الأخرى من مثل الشرف القبلي، والعنصرية، والأرض، والدم، والقومية.. من المفترض بنا أن ننبذ هذه الأساطير والأصنام والأسماء والخرافات، لنعبد اللَّه وحده.

---

١)– المدرسي ، السيد محمد مرجع سابق – ص ٢١٧

ونلاحظ هنا أن شعيباً عليه السلام يذكّر قومه بالميزة الأولى التي تحدّثنا عنها كواحدة من مزايا مجتمع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان الأنبياء جميعاً يبدؤون دعوتهم بهذه الكلمة التي هي الأساس لتغيير القيم الجاهلية. كما كان الأنبياء عليهم السلام يستهدفون أولاً وقبل كل شيء إزالة السلطة السياسية الفاسدة من المجتمع، وإقامة سلطة سياسية إلهية محلّها، ولذلك يقول تعالى بعد ذلك: (مالَكُم منْ إلَه غيره).

وبعد أن طالب النبي شعيب عليه السلام بنسف السلطة السياسية، بدء يشير إلى النظام الاقتصادي بما يرتبط بالميزة الثانية في المجتمع الحضاري الرسالي، ألا وهي ميزة (التكامل) التي تتطلّب من كل واحد من أفراد المجتمع الرسالي دفع الآخرين إلى النهوض، والتقدّم، والرفعة، والعزة.. وعلى ضوء ذلك قال النبي شعيب عليه السلام لقومه: (فَاَوفُوا الْكَيل وَالْميزَانَ ولاَ تبخسوا النَّاس أَشْيآءهم ولاَ تُفْسدُوا في الاَرض بعدَ إصْلاَحهَا)(الأعراف/٨٥). وهذه الأمور الثلاثة تدلّ كلّها على التكامل.(١)

٤- الإصلاح ميزة المجتمع الرسالي

وأما بالنسبة إلى أمر (الإصلاح) فإنّ هناك علاقة متينة بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين الطبيعة، ألا وهي علاقة الإصلاح. فالمجتمع الرسالي هو المجتمع الذي تكون فيه علاقته ببعض، وعلاقته بالطبيعة هي علاقة التربية والتنمية والتقدّم والنهوض.. في حين أنّ علاقة المجتمع المتخلّف بالطبيعة تكون علاقة الإفساد والاستهلاك والإسراف والترف.. وهكذا فإنّ هذه الميزة (الإصلاح) هي ميزة المجتمعات الرسالية، أما الإفساد فيمثّل ميزة المجتمعات الجاهلية المتخلّفة، وقد قال النبي شعيب عليه السلام لقومه: (فَاَوفُوا الْكَيل وَالْميزَانَ)؛ أي ليحاول كل واحد منكم أداء حقوق الآخرين، بل ليحاول إعطاءهم أكثرَ من حقّهم.

---

١)- المدرسي ، السيد محمد مرجع سابق ص ٢١٩

ثم يقول بعد ذلك: (ولاَ تبخسوا النَّاس أَشْيآءهم)؛ أي ليعترف كل واحد منكم بحقوق الآخرين، ومزاياهم، وليحاول الاستفادة من هذه المزايا من خلال الاعتراف بهم. فهذا ما يجعل المجتمع يتكامل ويتعاون ويتبادل المنفعة. وقال أيضاً: (ولاَ تُفْسدُوا في الاَرض بعدَ إصْلاَحها)؛ أي لتكن علاقتك بالآخرين، وعلاقة الآخرين بَك علاقة التكامل.

ويا ليت شعوبنا الإسلامية تعي المداليل العظيمة لهذه الآية: (ولاَ تُفْسدُوا في الاَرض بعدَ إصْلاَحها)، إذن لعرفت أن هذا الاستهلاك المستمر للموارد الطَبيعية، واستهلاك الصَناعاتَ والمنتوجات الأجنبية، إنّما هو مسامير فينعش هذه الأمة. فالأمة الرسالية يجب أن تنتج، لا أن تستهلك، وأن لا تستثمر؛ بل أن تتكامل مع الآخرين. فيجب أن لا يكون هم الواحد منّا أن يركب سيارة حديثة مستوردة من الخارج وما شاكل ذلك، بل يجب أن تكون جهودنا منصبة على الصنع لا الاستهلاك، والابتكار لا التقليد..

إنّ هذه الميزة (ميزة الإصلاح) كانت موجودة في مجتمع النبي شعيب عليه السلام، ولكنّها انتهت وتلاشت، ولذلك فإنّ شعيباً عليه السلام قام بتذكيرهم بهذه الميزة.

أما الميزة الثالثة التي كان يتمتّع بها مجتمع النبي شعيب عليه السلام ثم فقدها، فهي ميزة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث انعكست هذه الميزة في قوم النبي شعيب؛ فأخذوا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، بل ويضعون العقبات أمام الذين يريدون أن يعملوا المعروف ويأمروا به.

وللأسف فإن مجتمعاتنا الإسلامية انتهت إلى نفس هذا المصير، فالمصلحون في هذا المجتمعات مطاردون وكذلك الأحرار والمفكّرون، أما المفسدون الضالّون فهم الذين أمسكوا بزمام الأمور في هذه المجتمعات، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحالة السلبية الشّاذة بقوله على لسان النبي شعيب عليه السلام: (ولاَ تَقْعدُوا بكُلِّ صراطٍ

تُوعِدُونَ وتَصدُّونَ عن سبيل اللّهمن ءامن به وتبغونها عوجاً واذْكُروا إذْ كُنْتم قَليلاً فَكَثَّرَكم وانْظُروا كيف كَانَ عاقبةُ الْمُفْسدين)(الأعراف/٨٦).

انّ القرآن الكريم يصرّح في مَعرَض حديثه عن مجتمع النبي شعيب عليه السلام؛ أنّ هذا المجتمع بلغ مرحلة من الفساد والكفر دفعته إلى أن يصدّ ويعارض من يريد أن يشيع الخير والمعروف والفضيلة. وهذه هي نفس الحالة التي تسود مجتمعاتنا؛ فكل الطرق مسدودة على المصلحين، فاذا أرادوا أن يصدروا صحيفة تشيع القيم والأخلاق الفاضلة منعوهم، كما وأنّهم لا يفسحون لهم المجال لكي يتحدّثوا في وسائل الاعلام الأخرى، في حين أن هذه الوسائل هي ملكه لا ملك أولئك الفاسدين، وإذا أراد الواحد من هؤلاء المصلحين أن يخطب في الملأ العام منعوه كذلك، وإذا أراد أن يصدر نشرة اعتقلوه وقدّموه إلى المحاكمة... وباختصار فانّهم لا يفسحون المجال، ويسدّون جميع سبل انتشار المعروف، والخير.

ومن الطبيعي إن مثل هذا المجتمع هو مجتمع فاسد، وأنّ عاقبته الدمار، كما كانت عاقبة قوم النبي شعيب، هذه العاقبة التي يحدّثنا القرآن الكريم عنها قائلاً: (فَأَخذَتْهم الرَّجفَةُ فَاَصبحوا في دارهمْ جاثمين * الّذين كَذّبوا شعيباً كَأَن لَم يغْنَوا فيها الّذين كَذّبوا شعيباً كَانوا هم الْخَاسرين)(الأعراف/٩٢-٩١).([1])

٥- العلاقة الأخوية بينَ المصلح والمجتمع:

العلاقة بين المصلح و المجتمع لابد أن تكون علاقة قريبة ووثيقة كعلاقة الأخ بأخيه،

كما أشارت الآيات في قوله تعالى {إِذْ قَالَ لَهم أَخوهم صَالحٌ} الشعراء : ١٤٢، وكذلك نرى هذه الإشارة

متكررة عند حكاية القرآن لقصص الأنبياء مع أقوامهم، {أَخوهم هودٌ} الشعراء : ١٢٤ ،{أَخوهم نوح} الشعراء : ١٠٩، {أَخوهم لُوطٌ} الشعراء : ١٦١،

---

١)- المدرسي ، السيد محمد مرجع سابق ص ٢٢٢ وما بعدها بتصرف يسير .

والقاعدة العامة التي يعرضها القرآن الكريم لتبيان وتأسيس هذه الحالة هي قوله تعالى{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}الحجرات : ١٠ ، فالمصلح إنما يقوم بالإصلاحَ بين إَخوة له وأخوة فيما بينهم، لذا ستكون عملية الإصلاح أكثر رأفة ورحمة، أما من جهة المجتمع المتلقي فإنّ حالة الألفة ستولّد الاطمئنان وتزيل البؤس والوحشة عنهم، نجد هذه الحقيقة عندما أراد نبي الله يوسف أن يزيل البؤس والوحشة عن قلب أخيه الذي لم يكن يعرفه بعد، بقوله: { قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}يوسف : ٦٩ ، وعندما يحيد القادة عَن هذه الخاصية فإنهَم يستعلون ويتكبرون ويهتمون بشؤونهم الذاتية ويصبحون في معزل عن هموم المجتمع وقضاياه فضلاً عن الطريقة القاسية والخالية من روح الأخوة التي يديرون أمور الناس بها ، عندئذ ينفض الناس من حولهم و تقوم الثورات والحركات المطالبة بإبعادهم وإزاحتهم عن مناصبهم، يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}. آل عمران : ١٥٩ (١).

٦- وضوح الرؤية وضمانة الاستمرار:

لعل أكثر الأسباب في إخفاق بعض المصلحين والذين أرادوا إحداث التغييرات في مجتمعاتهم كالحركات الإصلاحية، أنهم لم يأتوا برؤية واضحة ومبينة لحركتهم، لذا نراهم يتقهقرون وتقوم الظروف بإملاء شروطها ومقاصدها على مسيرتهم ، لذا فمن المقومات التي تساهم في دفع عملية الإصلاح والتغيير الحضاري

هي الوضوح في الرؤية منذ الانطلاق والبدء في الحركة، نرى ذلك في قول الله عز وجل: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ} الشعراء :١٤٣-١٤٤، ف(رسولَ) تحديد المهمة التيَ جاء النبي من أجلها وَ(أمينَ) تمثل عهد الاستمرار على

---

١) – الموسوي ، السيد محمود " رؤية قرآنية في مسار الحضارات " مقال على الشبكة العنكبوتية في موقع : http://www.ruqayah.net/ ص ٨

تلك المهمة التي جاء بها ، وهي الضمانة التي يحتاجها المصلحون لمواصلة درب التغيير حتى نهاية الطريق، وللمحافظة على المبادئ التي انطلقوا منها، وهي الصفة حيث تكررت {إنّي لَكُم رسولٌ أَمينٌ}الشعراء :١٤٣ في قصصهم التي جاء جميع الأنبياء بها؛بل إنَ محور حركة الأنبيَاء وجميع الرسالات الإلهية والتي تحدّد لهم طريق أخذ تلك التعاليم والقنوات التي يتبعونها، إنما هي الطاعة وذلك الطريق (طاعة النبي) هي التي أكّد الله تعالى عليها في كثير من آياته، قال تعالى تعميماً لتلك الطاعة: {وما أَرسلْنَا من رَّسُول إلاَ ليُطَاعَ بإذْن الله}النساء : ٦٤، فالآلية التي توصل أمر الله تعالى للناس هي طاعةً الرسوَل.(١)

١)- الموسوي ، السيد محمود " مرجع سابق " ص ٧ .

٧- مبدئية الممارسة.

من المقومات المميزة للنهوض والتغيير لأي حكة إصلاحية هي أن تكون حركتها الإصلاحية ذات منطلق مبدئي إلهي، وهو إرادة الإصلاح والارتقاء بالمجتمع من أجل الله، لا من أجل المصالح والمنافع الدنيوية التي إن تحولت إلى ثقافة تسير أي حضارة فإنها تدوس على المبادئ والقيم التي تؤمن بها .. هذا ما كان واضحاً لدى الحضارات الإنسانية التي تخلّت عن المبدأ الإلهي، فقد عجزت عن الالتزام بمبدئيتها ولجأت إلى منافعها ومصالحها كأساس ومقياس للحركة وللإصلاح، لذا يقول تعالى على لسان نبيه عَلَيْه السلام { وما أَسْأَلُكُمْ عليه منْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إلاَّ علَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}الشعراء : ١٤٥.إن الله عز وجل وعد المصلحين بعدم ضياع أجرهم وقال:{إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} الأعراف : ١٧٠، كل ذلك لكي لا يكون الأجر الدنيوي هَو الأساس في التحرك نحو الإصلاح، لما يسببه من فساد في النظام وظلم لأكثر الناس، فالفقراء والمحتاجون لا يملكون أجراً يمكن أن يكافئوا به من يملك زمام التغيير، بينما هم أولى الناس به، ولهذا نرى في العالم الراهن من الانحياز التام للدول الغنية والتي تحتوي على المصالح، منْ قبل من بيدهم القوة والثروة، على حساب من يحتاجون للتغيير والإصلاح بالفعل، لتزداد الهوة بين الفقراء والأغنياء. إنَّ الله تعالى جعل الأجر الكبير والكريم والعظيم عنده، لكي تحصل كل المجتمعات على الأهمية ذاتها من الإصلاح، وإنْ بدا للبعض أنَّ الأجر الدنيوي هو الأهم وهو الوسيلة للتحرك، فإنَّ الله تعالى يؤكد ويقول: {ولأَجر الآخرة خير لّلذين آمنواْ وكَانُواْ يتَّقُونَ} يوسف :٥٧ ([1])

١) – المرجع السابق ص ٥ .

الفرع الثاني : عوامل الانهيار الحضاري في الاسلام

١- ظاهرة الانبهار الحضاري:

إنّ من الأسباب الأساسية للسقوط الحضاري في الرؤية الإسلامية: الشرك والنفاق والترف والفسوق والطغيان والاستغلال والمكر والاغترار بالنفس وعدم الاستقرار والأنانية وترك العمل واتباع الباطل، فالشرك والنفاق ينزعان اليقين من القلب حتى لو بقي التسليم بالنظريات والأصول تسليماً ظاهرياً. وترك العمل أو سوء العمل ينزع من أفراد الأمة الصلاحيات التي يحتاج إليها لتنفيذ الأصول والنظريات، وينفي عنهم الاستعداد للتضحيات اللازمة والطاعة الواجبة، ويترتب على ما مضى ميلهم إلى اتباع الباطل و الاغترار بأنفسهم ومن ثم تنعدم فيهم صفة الاستقلال وضبط النفس بل يسيطر عليهم الأنانية وعدم الثبات (١).

ويمكن إجمال أسباب السقوط في الرؤية الإسلامية في النقاط التالية:

١- الكفر والشرك:

إنّ الكفر أو الشرك يعني انفصال الحضارة من الدّين وتحررها من سلطانه وهذا يفضي بها ولا بد إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها، عاجلاً أو آجلاً . وهذا ما يبدو جلياً في حالة الشقاء التي يتعرض لها المجتمع الكافر أو المشرك قال تعالى " قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ *وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة:٣٨-٣٩)، وقال تعالى "فَإِمَا يَأْتِيَنكُم مِنِي هُدًى فَمَن اتبع هُدَايَ فلا يَضِل ولا يشقى*ومن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَه مَعِيشَةً ضَنكاً " (طه:١٢٣-١٢٤)،

وقال تعالى " فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلْ السَّمَاء عَلَيْكُم مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُم جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً " (نوح:١٠-١٢)،

---

١)- الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة " ص ٢٧٥

وقال تعالى : " قُل هل نُنبئُكُم بالأَخسرين أَعمالاً (١٠٣) الَّذين ضلَّ سعيهم في الْحَياة الدُّنْيا وهم يحسبون أَنَّهم يُحسنون صنعاً (١٠٤) أُولَئك الَّذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فَحبطَت أَعمالُهم فلا نُقيم لَهم يوم الْقيامة وزناً (١٠٥) ذَلك جزاؤهم جَهنَّم بما كَفروا واتَّخذُوا آياتي ورسُلي هزواً (١٠٦) (الكهف:١٠٣-١٠٥).

إنّ تجربة الحضارة المعاصرة وصيحات مفكري تلك الحضارة ترينا الآثار التي ترتبت على الكفر بالله أو الإشراك به – وهي آثار هدّامة وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما ءاخرين (الأنبياء:١١)، ومن ثم لا يمكن القول: إنّ الجنوح المادي الذي طالما تميزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى وقتنا الراهن كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها أي إيمان بالغيب أو المثل العليا، إنما يمثّل تعبيراً عن السعادة بمفهومها الشّامل، على العكس فإنّ هذا الجنوح يمثّل نقصاً كبيراً وانحرافاً خطيراً في تجربة يملأ خلاياها وشرايينها بالتعاسة والشقاء .

ومهما يكن من أمر فإنّ الحضارة –أية حضارة– محكومة بالسنن الإلهية، وهذه السنن في المجال الحضاري –كما أسلفنا– على نوعين؛ سنن جزئية تتعلق بعالم الشهادة وهي سنن تعطي كل من يوظفها على قدر سعيه ولا تفرّق بين مؤمن وكافر، وسنن كليَّة حاكمة على هذه السنن الجزئية، وهي سنّة الإيمان بالله وتوحيده، وهي التي تحدّد مصير الحضارات، نمواً أو سقوطاً، وتعتبر جميع عوامل سقوط الحضارات تبعاً لهذا العامل أي غياب الإيمان بالله وتوحيده.

٢- الظلم:

يعتبر الظلم من أكبر عوامل سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل عريض يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة وعلاقات الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره. وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعم الفساد الحياة الإنسانية بأسرها( ):

وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (هود:١١٧)، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظلمة إن أخذه أليم شديد (هود:١٠٢).

والقرآن الكريم ينعي على جماعة المؤمنين قبول الظلم في أي شكل كان: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (النساء:٩٧-٩٨)، وسكنتمَ في مسكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال (إبراهيم:٤٥)،([1]) يقول ابن تيمية: «إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة... الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام» ([2]).

٣- الترف:

وقف ابن خلدون طويلاً في مقدمته عند مسألة الترف، واعتبر الترف حتمية ترتبط بعملية التحضُّر بانتقال الجماعات البشرية من البداوة والتنقل في الصحراء إلى الغنى والحضارة والاستقرار، وعالج المسألة من جانبيها الأخلاقي والاقتصادي فبين في

١)- الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة " ص ٢٧٨ وما بعدها .

٢)- الحراني ، احمد بن محمد بن ت يمية " الفتاوى الكبرى " ٧/ ٢١١

الأولى ما يؤول إليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكس بالضرورة على مسيرة الحضارة ويأذن بتوقف تدفقها الإبداعي وبالتالي انحلالها ودمارها . وبيَّن في الثانية ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، ومن تضخيم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلباً على التطور الحضاري العام .

إنّ الترف ممارسة مدمرة، سواء للجماعة كلها التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف أو تغلو في انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن، أو للمترفين أنفسهم، الذين يعمي الثراء الفاحش وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية بصائرهم ويطمس على أرواحهم، ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم، ويحجب عنهم كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدُّنيا وموقعه في الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الغيب والشهادة والمادة والروح [١]. والقرآن الكريم يؤكّد ذلك: وَكَم أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيةٍ بطرتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَما كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبعثَ فِي أُمِّهَا رَسولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) (القصص:٥٨-٥٩).

قَالَ تعالى : "وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيةً أَمَرنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَولُ فَدَمَّرنَاهَا تَدْمِيراً " (الإسراء:١٦)، وقال تعالى " ومَا أرسلنا في قَرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بمَا أرسلتم به كافرون* وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين" (سبأ:٣٤-٣٥). "[٢]

١)- ابن خلدون ، احمد " مقدمة ابن خلدون " ص ١٦٧

٢)- . الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة "(مرجع سابق) ص ٢٨٢ وما بعدها

٤- التحلُّل الخلقي والسُّلوكي:

من أسباب سقوط الحضارات ظهور المعاصي وانتشار الفواحش في المجتمعات مع سكوت الناس عن تغييرها، ذلك أنّ المعصية إذا صدرت من فرد وأتى بها خفية كان ضررها قاصراً عليه لا يتعداه إلى غيره، أما إذا أصبح المجرمون المنحرفون يعلنون إجرامهم ويتظاهرون بفسوقهم ولم يوجد من يأخذ على أيديهم ويردهم عن عصيانهم دب حينئذ ضرر الفاحشة إلى العامة والخاصة ولم يبق وبالها مقتصراً على مرتكبيها . وقدّم القرآن الكريم نموذجاً لذلك بقوم لوط وامرأة العزيز وصويحباتها، كما جاءت سورة النور مبيِّنة لآثار الزنا، وناقشت السنَّة النبوية هذه الفواحش وآثارها في أحاديث الفتن والملاحم.

هذه العوامل تنبثق كلها في نهاية الأمر من الابتعاد أو الانحراف عن الإيمان بالله والتوحيد. ومما لا شك فيه أنّ القيم الأخلاقية المعيارية هي وليدة عقيدة الإيمان بالله، وحيثما غاب الإيمان أو انحرف عن مسار التوحيد فإنّ النتيجة هي ظهور الفساد في البر والبحر، الذي يؤذن بالتدهور والسقوط. غير أنّ عوامل الإمكان الحضاري متوافرة للأمة للنهوض متى ما رجعت إلى عقيدتها، «ومن الأمور المنطقية في قضايا الحضارات أنّ الحضارة لا تتجدّد ولا تقوم مرة أخرى إلاّ في إطار منطلقها الأول وخصائصها الذاتية واستحضار ماضيها وربطه بحاضرها؛ لأنّ الانسلاخ عن منجزات التاريخ أمر مستحيل»([1]).

٥- ظاهرة الانبهار الحضاري.

من الثوابت الحضارية التي ترافق الحضارات في صعودها وتفوقها هي ظاهرة الانبهار التي تستولي على المجتمعات، الانبهار بالتقدّم الذي حققته الحضارة في الدنيا، من الصناعة والقوة والرفاه المادي، والموقف السلبي الذي يتخذه الإنسان

---

١)- الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة " (مرجع سابق) ص ٢٨٥ وما بعدها

بسبب إعجابه هذا، هو حسبانه أن ذلك يكفيه ليعيش عيشاً رغيداً مدى الحياة، وتساوره ظنون البقاء والأبدية والأمن من طوارق الليل والنهار لحضارته، مكتفياً ومتخلياً عن القوة الحقيقية التي تمنح الحياة وأطل عليه الأمن والرفاه، وهي القوة الإلهية لله خالق الكون.

ويؤكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة الذي يعرضها في سياق قصة حضارة ثمود، بقوله: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}الشعراء١٤٦ً- ١٤٩ً، {أَتُتْرَكُونَ} أي أتحسبَون أنكمَ متروكَون!. ورَغم أن هذَه الظاهرة هي ثابت من الثوابت الحضارية إلاّ أنها ليست في صالح الحضارات إذا ذهب هذا الانبهار بصاحبه إلى نكران الحقائق والمبادئ، وذلك عن طريق تحول الإنجازات من وسائل صناعية في يد الإنسان ومسخرة لحياته، إلى أساس ومقياس يقود الإنسان ليبصر من خلاله الأشياء ويكون ثقافته، وبالتالي تبدأ مسيرة الحضارة لتتحول من الصعود إلى التراجع والتلاشي، شيئاً فشيئاً.. العودة إلى الحقائق بعدما وصف الحالة التي كان عليها قومه أشار نبي الله صالح إلى تأثير إنجازاتهم الدنيوية على ثقافتهم ونمط تفكيرهم، فهم يعتقدون أنهم وبما وصلوا إليه من التقدّم، و ما أوتوا من قوة {آمنينَ}، مكتفين بأنفسهم عن أي شيء آخر في الحياة، فأكّد النبي لهم بعد ذلك علىَ العودة إلى الحقائق والثقافة الخالية من شوائب الإنجاز ومتعلقات المادة، وهي تقوى الله والتزامها من خلال طاعة الأنبياء، قال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}. إن الله تعالى يعطينا مجموعة من البصائر القرآنية تهدينا إلى أن مقياس الحقَ والصلاح والاستقامة والرشد لا تتمثل في حالة الانبهار والإعجاب والحب لما نراه مبهراً و عجيباً ومرغوباً، يقول ربنا عز وجل كحقيقة عامة: {وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وهو خير لكُم وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وهو شَرٌّ لَّكُم والله يعلَم وأَنتم لاَ تعلَمون}. البقرة : ٢١٦ ويقول تعالى: {قُل لاَّ يستَوِي الْخَبِيثُ والطَّيِّب ولَو أَعجبكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ}المائدة : ١٠٠ ، فالخبيث مفهوم لا يتغير بتغير الشكَل والمظهر أو بالكم والعدَد، ولا يتغير إذا سحر أعين الناس وأعجبهم حسنه

الظاهري.. لذا فإن الله تعالى ينهى عن هذه الحالة في آية أخرى إذ يقول: {ولاَ تُعْجِبْكَ أَموالُهم ولا أَولاَدهم} التوبة : ٥٥. وحتى على مستوى البشر بالنظر إلى ثقافتهم التي ينطلقون منها يقول تعالى: {ولأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خير مِّن مُّشْرِكَة ولَو أَعْجبتْكُم} البقرة ٢٢١، ويقول عز وجل: {ولَعبدٌ مُّؤْمِنٌ خير مِّن مُّشْرِكٍ ولَو أَعْجبكُم أُولَئك يدْعونَ إِلَى النَّار واللهُ يدْعو إِلَى الْجَنَّة والْمَغْفرة} البقرة :٢٢١.. فالآية الكريمة تدعونا للوصول إلى العمق لنبصر ماهية الثقافة المحركة لهذا المجتمع أو ذاك، لكي لا تسوقنا مشاعرنا بما زينت لها **درجة** الحضارات إلى نكران الحقائق الكبرى وصدّ الهدى والابتعاد عن المنعم الذي أغدق علينا تلك النعم ووفقنا للوصول إليها. سيادة تلك الظاهرة الخطرة في قومه، عمد إلى الإشارة وعندما رأى النبي صالح إلى مصدر كل تلك الإنجازات وقال لقومه في موضع آخر من القرآن الكريم: {هو أَنشأَكُم مِّن الأَرض واستعمركُم فِيها فَاسْتَغْفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْه} هود : ٦١، ولكنهم لم يستمعوا إليه، {وأَمَّا ثَمُود فَهديْنَاهم فَاستَحَبُّوا الْعمى عَلَى الْهدَى}فصلت : ١٧. لذلك نجد أن الله عز وجل ذكّر **هذه** الحقيقة وأكّد على الإلتزام **بها**، عندما فتحت مكة على يد رسولنا الأكرم النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، كما نجد ذلك في سورة النصر، حيث قال تعالى: {إِذَا جاء نَصر الله والْفَتْح ورأَيت النَّاس يدْخلُونَ في دين الله أَفْواجا فَسبِّح بِحَمْد ربِّك واستَغْفره إِنَّه كَانَ توَّابا}.سورة النصر كاملة .(١)

٦- الانبهار يتجاوز العقل:

رغم وضوح الرؤية واقتراب الانهيار، بل والعيش في الانهيار، فإنَّ الشيطان يضرب على العقول التي لم ترتبط بالله، فيزين الشيطان لهم سوء أعمالهم وإسرافهم، كما يزين للبعض المباني الفارهة، والبطر المعيشي، وامتلاك الأسلحة الفتّاكة، وشبكات التحلل والجريمة المقنّعة وغيرها.. قال تعالى {كَذَلكَ زُيِّنَ لِلْمُسرِفينَ ما كَانُوا يعملُونَ} يونس : ١٢، فلا يستوعبون و{قَالُوا إِنَّمَا أَنت مِن الْمسَحَّرِين} الشعراء :

١)- الموسوي ، السيد محمود " رؤية قرآنية في مسار الحضارات " (مرجع سابق) ص ٨

١٥٣هذه الحقائق، فيجادلون، كما جادلت ثمود صالحاً {ما أنت إلاَّ بشر مّثلنا فَأْت بآية إن كُنت من الصَّادقين} الشعراء : ١٥٤ وقد {كَذَّبت ثَمُود بطَغْواها}الشمس : ١١.

الامتحان الواقعي:

الامتحان الحقيقي يتمثّل على أرض الواقع، الذي يبين هل أن الإنسان سار وفق القانون والسنّة الطبيعية العادلة للكون، أم أنه عاث فيها فساداً؟ فعرض الحقائق يبين المستوى الذي تحتله تلك الحضارة، قال النبي صالح لمحاوريه: {قَالَ هَذه نَاقَةٌ لَّهَا شرْبٌ ولَكُم شرْبُ يَوْم مَّعْلُوم ولاَ تَمَسُّوها بسُوء فَيَأْخذَكُ عَذَاب يَوْم عَظيمَ فعقَروها فَأَصبحوا نَادمَينَ} الشّعراء : ١٥٥، فإن امتحان الناقة امتحان عَلى أرض الواقع المعاش، حيثَ يتضح خرقه من خلال الملامسة والمعاينة، إذ وضع الله القوانين التي تحفظ التوازن بين جميع الناس وكافة الأمم، ولكي نستظهر قانون الإنصاف والعدل والأمن الاجتماعي والامتحان الحضاري، نرى أن قانون التوازن جاء في هذه الآية ليحدد الوقت (يوم معلوم)، ويقول تعالى في آية أخرى عن نعمه للخلق وخزائنه: {وَإن مّن شَيْء إلاَّ عندنَا خَزَائنُه وما نُنَزّلُه إلاَّ بقَدَر مَّعْلُوم}الحجر : ٢١، فالقدر واليوم المعلومان، متعلقَان بحقوقَ الناس من نعم الله، كما في الآية الكريمة : {وفي أَمْوالهمْ حقٌّ لّلسَّائل والْمَحْروم}الذاريات :١٩

فالقانون هو إعطاء الحق المعلوم، في اليوم المعلوم، بالقدر المعلوم وهو قانون الإنصاف والعدل وعدم الإسراف، قانون الأمن من الانهيار الحضاري. وقد فشلت ثمود في الامتحان الواقعي وتعدّت على القدر المعلوم، قال عز وجل: {إنَّا مُرْسلُو النَّاقَة فتْنَةً لَّهُمْ فَارْتقبهمْ واصْطَبرْ ونبئهمْ أَنَّ الْماء قسْمَةٌ بينهم كُلُّ شرْب مُّحْتَضر فَنَادوا صَاحبَهُمْ فتعاطَى فعقر}القمر : ٢٩ . بعد عرض الحقائق لابد أن تهتز الأنفس، وتنفض الكثبان من فوق العقول، ليبصر الإنسان ما قدّمت يداه، ليعيش حالة الندم {فَأَصبحوا نَادمينَ}الشعراء : ١٥٧، ومن يلتزم الغفلة ويفضّل العيش في وحل الشهوات وانتهاج نهجها، فإن عذاب الله يكون نهايته، {فَدَمْدَمَ عَلَيْهمْ ربُّهُم بذَنبهمْ

فَسوَّاها}الشمس : ١٤، وذلك هو الانهيار. فأي حضارة تعبث في هذا القانون الحقوقي ستعيش حالة من التفكك والتصدّع لتبدأ مشوار الانهيار.([1])

٧- التمزق المذهبي:

نهى الله سبحانه وتعالى عن التفرق حيث قال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ آل عمران: ١٠٣ وقال تعالى "﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الأنفال: ٤٦ ، ولم يتمسك المسلمون تماماً بهذا التوجيه الإلهي حيث حدث التناوش والاختلاف وبدأ اختلافاً في وجهات النظر إلاّ أن وجهات النظر هذه سرعان ما تمّ تأطيرها في مذاهب على مستوى العقيدة والشريعة ([2]).

وصور ابن تيمية الدرجة التي وصل إليها الخلاف والتعصُّب بقوله: «والكثير من هذه الطوائف يتعصب على غيره ولا يرى الجزع المعترض في عينه، ويذكر من أقوال غيره ومخالفتها للنصوص والمعقول ما يكون له من الأقوال في ذلك الباب ما هو من جنس الأقوال أو أضعف منها» ([3]).

ويقول الشهرستاني: « وكان التضاد بين كل فرقة وفرقة حاصلاً في كل زمان، ولكل فرقة مقالة حيالها، وكتب صنّفوها، ودولة عاونتهم، وصولة طاوعتهم» ([4]) . ووصل التعصُّب للمذهب وعلمائه أن صارت أقوال الفقهاء شريعة بجانب الشريعة، يقول الفقيه الحنفي أبو الحسن الكرخي (٢٦٠ هـ -٣٤٠

---

١) - الموسوي ، السيد محمود " رؤية قرآنية في مسار الحضارات " (مرجع سابق) ص ٩ -١٠

٢)- الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة "(مرجع سابق) ص٢٩٢ وما بعدها

٣)- الحراني ، احمد بن تيمية " الاستقامة " ص ٤٦٨

٤)- الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (ابوالفتح) " الفرق بين الفرق " ٢١٤/٢

هـ)، عفا الله عنه: «كل آية أو حديث تخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ»(١) !! هذا الغلو والتطرف الذي يتنافى مع روح الإسلام القائمة على اليسر ورفع الحرج والإعنات عن الإنسان صاحبته من جانب آخر انتشار الرؤية الإرجائية لدى قطاع عريض من المسلمين، حيث تم فصل العمل عن الإيمان، فما دام المرء مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر فهذا كفيل بإدخال صاحبه الجنة ولو ارتكب الكبائر وتقاعس عن العمل. وهكذا انطفأت فاعلية الأمة وأفسحت المجال لأعدائها لعمارة الكون.

وجملة القول: إنّ الإصابة قد لحقت بجميع النظم والأبنية الإسلامية الفكرية والاجتماعية والسَّياسية والاقتصادية، وهي انعكاس للحال التي وصل إليها إنسان الحضارة الإسلامية، أفراداً ومجتمعات ودولاً. وكما ذكرنا سابقاً فإنّ عوامل الإمكان الحضاري متوافرة للأمة للنهوض متى ما رجعت إلى عقيدتها، « ومن الأمور المنطقية في قضايا الحضارات أنّ الحضارة لا تتجدّد ولا تقوم مرة أخرى إلاّ في إطار منطلقها الأول وخصائصها الذاتية واستحضار ماضيها وربطه بحاضرها؛ لأنّ الانسلاخ عن منجزات التاريخ أمر مستحيل»(٢)

---

١) – الدبوسي ، ابو زيد " تأسيس النظر " ملحقا بكتاب الأصول لابي الحسن الكرخي الحنفي ص ١٦٤

٢)– الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية – دراسة مقارنة "(مرجع سابق) ص ٢٩٦ .

الفرع الثالث : بيان أثر الاسراف في تخريب وتدمير حضارة الأمة

إنَّ العمل الذي يحقق الانهيار ويسبب الفساد في الأرض كما عبرت عنه الآيات، هو فعل (الإسراف) وبما أنَّها تتحدّث عن الإفساد على مستوى الأرض وهو مستوى عريض من التأثير، فإنَّ الإسراف الذي يؤثّر ذلك التأثير، لن يكون كالإسراف المتبادر على المستوى الشخصي، بل هو إسراف على المستوى الحضاري.

قياس المجتمعات:

وعلى ذلك فإنما تقاس المجتمعات في مستواها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي و غيره، بنسبة الأكثرية، كما أشارت الآية الكريمة:﴿وما كَانَ أَكْثَرهم مُّؤْمنينَ﴾ إشارة إلى قوم صالح الذين عبرت عنهم الآيات في البدء بـ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلينَ﴾ الشعراء :١٤١ ، كحكم ووصف لحالة مجتمع ثمود، فإذا كان أكثر الناسَ في مجتمع ما فاسدين جاز لنا أن نطلق عليه بأنه مجتمع فاسد، وإذا كان أكثرهم صالحين، جاز لنا أن نصفه بالصلاح، مع التأكيد على نقطتين في هذا المقياس:

الأولى: أن الراضين بفعل المفسد أو المصلح أو الممتثل لأمره إنما يصنّف من فئة المطاع، كما نهت الآية عن (طاعة أمر المفسدين) وأمرت بطاعة (الله والنبي) الذين يمثلون الإصلاح.

الثانية: وسم المجتمع بأنه يعيش ضمن حالة سلبية أو إيجابية، لا يعني احتساب المغايرين لهم معهم، بل لابد من حفظ الاستثناء وتقدير مواقفهم، فإن الله تعالى استثنى من قوم صالح المؤمنين، من العذاب وقال: ﴿وأَنجينَا الَّذينَ آمنُوا وكَانُوا يتَّقُونَ﴾.يونس : ٦٢

ويجدر الالتفات إلى أن الآيات الشريفة في سردها لحضارة ثمود تشير إلى أن الذي يقوم بالإفساد إنما هم مجموعة صغيرة مكونة من تسعة أشخاص، وذلك في قوله تعالى: ﴿وكَانَ في الْمَدينَة تسْعَةُ رَهْط يُفْسدُونَ في الأَرْض ولاَ يُصْلحُونَ﴾ النمل : ٤٨، وقد ذهب سياقَ الآيَات إلى أبعد مَن ذلك، فهي تَحكي لنا أن تحالفاً وترابطاً

منسقاً يجمع أولئك التسعة، يقول تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.النمل : ٥٠

وَهَذَا ما يتجسد في واقعنَا الرَاهن فيَما نراه من هيمنة الحكومات كأفراد وجماعات قليلة على الرقع الاجتماعية الواسعة، بل ويتّضح ذلك لنا على المستوى الحضاري العام في مرحلة العولمة، من استئثار بعض الشركات الكبرى على مقدّرات العالم وهيمنتها على ثقافته وسياسته واقتصادياته وسلوكه، والتي يقدّر عددها بـ ٥٠٠ شركة كبرى حول العالم تحصل على أموال هائلة تقدّر نسبتها بنصف المدخول العالمي، وينحصر عدد المؤثّرين أكثر، في السلطة التي تبعث بتوصياتها وتعليماتها المهيمنة، وهي البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وبعض الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة، على تفصيل لسنا بصدده ([1])

أما الانعكاسات السلبية للإسراف على المستوى الاجتماعي، فهي:

١. هدر الطاقات و تضيع مصادر الاقتصاد: " لاريب أن الاسراف يؤدي الى هدر مصادر الاقتصاد كالطاقة و المعادن و المياه و... و لا تمنع كثرتها من إهدارها فيما اذا تفشت ظاهرة الاسراف في المجتمع" ([2])

٢. تسافل الخلق الاجتماعي و انحطاطه: إن الاسراف و التبذير وبعثرة الاموال في امور لا ينبغي صرفها فيها، يؤدي الى خروج الانسان عن الجادة القويمة و التورط بالفساد و الانحطاط، بنحو لا يرى لأبناء نوعه بل لسائر المكونات قيمة تستحق الالتفات اليها و الاهتمام بها، فلا يشعر بالجياع و المحرومين و المعذبين و... مضحيا بكل ذلك في مقابل اطلاق العنان لنفسه تنجرف مع الاسراف و التبذير في ملاذها الكاذبة و شهواتها الخادعة.

---

١)- الموسوي ، السيد محمود " مسارات الحضارة " (مرجع سابق) ص ٧

٢)- التميمي ، الآمدي عبد الواحد " تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم " ص ٣٥٩، مكتب الاعلام الاسلامي، قم، الطبعة الاولى، ١٣٦٦

٣. التمايز الطبقي: من الانعكاسات السلبية للإسراف تحول المجتمع الى طبقات متفاوتة في القدرة الشرائية و الاستطاعة المادية؛ و ذلك لان الاغنياء يعطون – حينئذ- لأنفسهم الحق في صرف ثرواتهم في أي موضع شاءوا و بأي طريق اختاروا حتى لو كانت مخالفة للشريعة و العرف. من هنا يتحول المجتمع الى طبقات متفاوتة بين طبقة و أخرى فاصلة كبيرة جداً.

٤. زوال الحكومات: من الاثار السلبية التي يتركها الاسراف على المستوى الاجتماعي زوال الحكومات. و هذا المعنى ذهب اليه أبن خلدون معتقداً بان الحكومات التي تميل الى الاسراف و التبذير مآلها الى الزوال و الاندثار حتماً (١).

المبحث الثالث :دراسة تحليلية لنماذج قرانية لبيان أثر الاسراف على السقوط الحضاري ، وآليات التغيير و طرق المعالجة وتحته مطالب :

من الأهمية بمكان دراسة نماذج تطبيقية من الذكر الحكيم لبيان أثر الاسراف على السقوط والانهيار الحضاري في الأمم ، فهو من باب مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ونعوذ بالله تعالى من سوء الحال ومن حال أهل النار .

المطلب الأول : الإسراف في الجانب الجسدي وتحته فروع :

سبق وأن ذكرنا أن الطبيعة الإنسانية في ضوء منهجنا الإسلامي طبيعة متكاملة ومتوازنة لا يطغى فيها جانب على آخر؛ لذا فقد تضمن هذا المنهج الإسلامي التربوي حق الجسم في التغذية بشرط أن يكون حلالاً طيباً .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ الآية (البقرة: ١٦٨) ، قال ابن كثير في تفسير الآية : "ذكر الله في مقام الامتنان أنه أباح لخلقه أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول"(٢). إذن فمن ضوابط التغذية :

---

١)- ابن خلدون ، احمد " المقدمة " (مرجع سابق) ص ٢٣٣ .

(٢) الدمشقي ، اسماعيل بن كثير " تفسير القرآن العظيم "(مرجع سابق) ١٥٤/١.

أولاً : أن يكون الطعام حلالاً أي غير محرم أكله كأن يكون من كسب حرام مثلاً، ويؤيد ذلك قولهﷺ : "إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين وتلا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ الآية، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يقول يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له"[(١)] . وقد حرم سبحانه الكسب الحرام بقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (البقرة : ١٨٨).

ثانياً : أن يكون طيباً أي صالحاً في نفسه يشتهي أكله غير ضار للأبدان والعقول ، قال تعالى:﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ (الأعراف:١٥٧) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية (البقرة:١٧٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ (الأنعام، آية ١٢١) ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ (المائدة، ٩٠) ، وقال تعالى : ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة،٢٧٥) .

ثالثاً : ومن ضوابط التغذية : عدم الإسراف والشره في الأكل والشرب والنفقة عليهما .

---

(١) " صحيح مسلم" (مرجع سابق) ، كتاب الزكاة، باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم ١٠١٥ .

قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأعراف: ٣١) ، وعن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : "ولقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين"(١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ (النساء: ٥) ؛ ولما كان الشبع من الطعام والغلو في التهامه يسبب آفة تناول ما يزيد عن الحاجة وما يعقبه من أمراض بدنية، مثل السمنة، وأمراض القلب، وضغط الدم، وأمراضاً معنوية، مثل الكسل والخمول وضعف الهمة؛ لذا فقد نهىﷺ عن اعتياد الشبع فضلاً عن التخمة وتناول الزيادة عما يحتاج إليه الجسم (٢).

فعن مقدام بن معدي كرب ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه"(٣) . وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: تجشأ رجل عند النبي ﷺ فقال: "كف عنا جشاءك؛ فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة" (٤).

ومن صور الإسراف والغلو في المأكل والمشرب تنوع الأغذية في كل وجبة بصورة تزيد عن الحاجة، وتخرج عن حد الاعتدال أو التفريط بأن يقتصر على نوع

---

(١) صحيح مسلم (مرجع سابق) ، كتاب الزهد والرقائق، باب : رقم ٢٩، حديث رقم ٢٩٧٤ .

(٢) الديب ، محمد مصطفى " التربية على الغلو ذلك السلوك السلبي" ص ١٩٠ .

(٣) "سنن الترمذي" (مرجع سابق) ، كتاب الزهد . باب : كراهية كثرة الأكل رقم ٢٣٨٠، وقال حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح جامع الترمذي ٥٩٠/٤، رقم ٢٣٨٠ .

(٤) "سنن الترمذي"(مرجع سابق) ، كتاب صفة القيامة و الرقائق، باب : ٣٧ ، رقم ٢٤٧، وقال حديث حسن غريب وحسنه الألباني في صحيح جامع الترمذي ٦٤٩/٤ رقم ٢٤٧٨ .

واحد من الطعام، فهذا مضر . فعن أنس ﷺ قال : "إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت" [١].

قال ابن القيم : "وأكمل الناس لذة؛ من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن؛ فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ، فهذا ممن قال الله تعالى فيهم :﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ ﴾(الأعراف: ٣٢)، وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة، فيكون ممن قال الله لهم يوم استيفاء اللذات : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[٢] (الأحقاف: ٢٠)، وهناك ضوابط تتعلق بآداب الأكل والشرب وفق منهجنا الإسلامي: فهاهو النبي ﷺ يعلم أحد غلمان المسلمين هذه الآداب فيقول له : "يا بني : سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" [٣] .

إذن فوسطية الإسلام تقتضي حق الجسم في التغذية وفق ضوابط معينة هي بمثابة معايير يقاس عليها السلوك الغ ذائي للإنسان في الحياة فضلاً عن الإنسان المسلم .

---

(١) أبو يعلى ، الحافظ " المسند "، انظر: تفسير ابن كثير ١٩٦/٢ ، وعقب عليه الدارقطني بقوله هذا حديث غريب تفرد به بقية بن مخلد" . وأخرجه أحمد في كتاب الزهد ص ١٢٨ عن عمر. ولم أقف علي حكم لهذا الحديث

(٢) الفوائد لابن القيم ، ص ١٩١ .

(٣) صحيح مسلم (مرجع سابق) : كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب ، رقم (٢٠٢٢) .

الفرع الثاني : ضوابط الوسطية الجنسية :

يعترف الإسلام بالغرائز الفسيولوجية في الطبيعة البشرية التي يكون إشباعها أمراً ضرورياً تقتضيه الفطرة السليمة، وتستلزمه طبيعة تكوين الكائن البشري، إذ يتوقف على إشباعها حفظ الذات الإنسانية وبقاء نوعها[١].

ويقرر أن من حق الإنسان أن يحصل على إشباع دوافعه ولكن في الحدود التي شرعها الله تعالى، فليس في الإسلام ما يدل على إنكاره هذه الدوافع أو استقذارها أو كبتها كما هو في نظر المسيحية وتعاليم الكنيسة التي تنكر حق الفرد في مزاولة هذا النشاط أو حتى مجرد الرغبة وهي تستند إلى أقوال السيد المسيح الداعية إلى التطهر الروحي والارتفاع بالناس عن متاع الحس والمادية، التي كان اليهود يعيشون في دنسها، ولكن الكنيسة بالغت في أقوال نسبوها إلى المسيح – عليه السلام – حتى وصل بهم الأمر إلى الرهبانية التي أنكرها الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الحديد: ٢٧) ، ولكن ماذا كانت نتيجة هذا الكبت العنيف؟، لقد كانت النتيجة عكسية تماماً حيث تحول الكبت إلى الانغماس في الشهوات تحت أي ستار؛ لأنه من المستحيل عملياً أن تقبع البشرية إلى الأبد داخل الحدود التي أرادتها لها الكنيسة، فتحولت الأديرة والصوامع والمفترض أنها موضع القداسة والتطهر إلى أماكن ترتكب فيها أبشع الأعمال الإنسانية القذرة" [٢] . إذن فلا حرج إذا أشبع الرجل غريزته وفق ضوابط مشروعة وهي :

أولاً : أن يكون بطريق النكاح المشروع :

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١) ، وقد حثّ النبي ﷺ

(١) الغامدي ، عبد الرحمن "مدخل إلى التربية الإسلامية" ، ص ٣٧٢ .

(٢) قطب ، محمد "الإنسان بين المادية والإسلام" ص ٧٢ .

على الزواج ، فقال: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرد، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[١] ، ومن هنا شرع الزواج وكرهت الرهبنة وهنا يقول تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الحديد: ٢٧). كما استحسن اختيار الزوجة من السلالة السليمة عقلاً، وجسماً، وذلك لتحسين النسل ، فقال ﷺ : "تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم"[٢].

ويعين الرسول ﷺ أن على الآباء أن يختاروا لبناتهم أزواجاً صالحين وإلا سيؤدي الأمر إلى فساد كبير، فقال : "إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، وإلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير"[٣].

ولقد أثبت الدكتور "الكسيس كارل" كيف أن سوء الخلق ينتشر عن طريق الزواج ويؤثر في الذرية تأثيراً سيئاً من الناحية البيولوجية والسيكولوجية والسلوكية، فقال: "نحن نعرف اليوم أن الزواج بين أولاد الأشقياء، أو السكيرين أو المصابين بالزهري ، وحاملي العيوب العقلية الوراثية، يعتبر جريمة جديرة بالعقاب، وينبغي أن لا ننسى في هذا الصدد أسرة روك الأمريكية حين تم الزواج بين شخصين من أرباب السوابق فظهر من بين سلالتهما ٣٣٩ عاهراً و١٨١ سكيراً، و١٧٠ معوزاً، و١١٨ مجرماً، و٨٦ من أصحاب بيوت الدعارة. وقال ﷺ : "تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم"[٤] ، وهذه الحقيقة كانت معروفة لدى الناس وقد أشار إليها

---

(١) البخاري ، محمدبن اسماعيل" صحيح البخاري" (مرجع سابق) ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ، رقم ٥٠٦٥ .

(٢) النيسابوري ، الحاكم" المستدرك على الصحيحين " ١٦٣/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٠٦٧.

(٣) "سنن الترمذي"(مرجع سابق) ، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه برقم ١٩٨٤، وصححه الألباني في الصحيحة برقم١٠٢٢.

(٤) سبق تخريجه

القرآن الكريم في قضية مريم عليها السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ (مريم: ٢٧-٢٨)؛ غير أنه ما كان يعرفه الناس هو أن سوء خلق الوالدين يؤثر في الأبناء عن طريق التقليد فحسب، لكن العلم يثبت اليوم أنه يؤثر أيضاً عن طريق الخلايا الملقحة، ثم إن الإسلام حرم كل سلوك من شأنه أن يعوق استمرار التناسل؛ لأنه يعد منعاً لاستمرار النوع؛ ولهذا منع الإجهاض وعده الإسلام جريمة، سواء من قبل الأ م أو من قبل غيرها. ومنع أيضاً الاختصاء لأنه يعد عائقاً دائماً أمام استمرار النوع، والدليل على ذلك ما روى عن بعض الصحابة ، قالوا : (كنا مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا ألا نستخصي فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا في أن ننكح المرأة بالثوب [1] ثم قرأ علينا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (المائدة: ٨٧) . كما نهى عن تحديد النسل وهي فكرة ليست جديدة بل موجودة إبان ظهور الإسلام، وقد كان العرب أو بعض الأفراد يقوم بتحديد النسل ، وذلك بإحدى وسيلتين :

الأولى : قتل الأولاد في بطن الأمهات .

وثانيتهما : العزل .

وقد أنكر الإسلام الوسيلة الأولى إنكاراً قاطعاً، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الإسراء: ٣١)، وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ

(١) "صحيح البخاري"(مرجع سابق) ، كتاب : النكاح، باب تزويج المعسر / رقم ٥٠٧١؛ وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١١/١٩-٢٠ .

عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ (الأنعام: ١٤٠).

أما الوسيلة الثانية، وهي العزل فقد سألوا رسول الله ﷺ عن حكم العزل ، وكان ﷺ يفتي في ذلك بناء على الأسباب التي كان يعلل بها كل سائل، جاء رجل يوماً يسأله ويقول : "إن لي جارية وأنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل، فقال: اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها" (١) .

وقال آخر يوماً : "أصبنا سبياً فكنا نعزل فسألنا رسول الله ﷺ ، فقال: أو إنكم تفعلون؟ قالها ثلاثاً، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة" (٢) .

وسئل في مناسبة أخرى عنه فقال: "ذلك الوأد الخفي" (٣).

وجاء في رواية أن الرسول ﷺ قال ذلك موافقة على رأي اليهود ، وكان لا يكذب أهل الكتاب بما يقولون إلا إذا نزل عليه وحي يخالف ذلك. وفي هذا الصدد قال في حديث آخر عندما جاءه جماعة من الصحابة وسألوه عن مدى صدق اليهود في قولهم في العزل : "إن تلك الموؤدة الصغرى" ، فقال ﷺ : "كذبت اليهود لو أراد الله خلقه لم تستطع رده" (٤) .

وسبب تكذيب اليهود كما يقول ابن حجر : "أن العزل لا يتصور فيه الحمل أصلاً وهم جعلوه بمنزلة قطع النسل بالوأد ، فأكذبهم" (٥) ؛ لكن لا ينبغي أن

---

(١) صحيح البخاري (مرجع سابق)كتاب النكاح، باب العزل ، رقم ٥٢١٠ .فتح الباري ١١ /٢١٩

(٢) صحيح البخاري (مرجع سابق)، كاب النكاح، باب: العزل رقم ٥٢١١، فتح الباري ٢١٨/١١ .

(٣) صحيح البخاري،(مرجع سابق) كتاب النكاح، باب العزل ، رقم ٥٢٠٩، فتح الباري ٢٢٠/١١ .

(٤) صحيح البخاري (مرجع سابق)، كتاب النكاح، باب العزل ٥٢٠٨، فتح الباري ٢٢٠/١١.

(٥) العسقلاني ، احمد بن حجر "فتح الباري شرح صحيح البخاري" ٢٢١/١١ .

يفهم من عدم عد النبي ﷺ ذلك الوأد الأصغر أو الخفي أنه يدعو إلى ذلك بل الأمر على عكس ذلك فإنه يفهم من النصوص الواردة أفضلية ترك العزل [١] . كما جاء في نص آخر حين سئل النبي ﷺ فقال: "لا عليكم ألا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة"[٢] .

وهنا يرى الغزالي: "أن النصوص الواردة أفادت النهي ، فهي على سبيل التنزيه لا على التحريم، وليس في فعله حرام، وإن كان في تركه فضيلة" [٣].

هذا وإذا كان الإسلام قد ضبط إشباع الغريزة الجنسية بضابط النكاح المشروع؛ فأنه قد نهى على سبيل الغلو والإفراط ومجاوزة الحد في هذا الضابط عن ممارسة الإشباع لتلك الغريزة بطريق تعاطي بعض الأزواج للحبوب المنشطة من غير حا جة للاستكثار من عدد مرات الجماع إمعاناً في طلب المتعة ، وزيادة الإثارة، فيهلك المسلم بدنه في تلك الإشباعات والشهوات ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: ١٩٥) .

ثانياً : ألا تكون بطريق محظور شرعاً :

وقد حرم الإسلام أن يكون إشباع هذه الغريزة عن طريق الزنا ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٣)، أو عن طريق اللواط، فقال سبحانه في قوم لوط على لسان نبيه لوط عليه السلام : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (الشعراء: ١٦٥-١٦٦)، وقال تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (النمل: ٥٥)، وحرم

(١) يالجن ، مقداد " علم الأخلاق الإسلامية" ص ١٣٢وما بعدها .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الغزالي ، محمد بن محمد ابو حامد" إحياء علوم الدين " ٥٣/٢ .

على الرجل أن يأتي زوجته في دبرها، أو وقت الدورة، فقال سبحانه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ ﴾ (البقرة: ٢٢٣) ؛ ومعلوم أن الحرث منبت الزرع، وهو كناية عن الإنجاب والنسل . وقال ﷺ : "إذا رأيتم الرجل يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به" (١) ، وفي رواية : "فاقتلوه واقتلوا البهيمة" (٢).

وقد نهى الإسلام عموماً عن إتيان الفواحش، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقال تعالى في وصف عباده المؤمنين : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾ (المؤمنون: ٥-٧).

وهكذا نجد أن المنهج الرباني الذي شرعه الله العليم الخبير الذي هو أعلم بطبيعة البشر يدعو إلى السيطرة على هذه الدوافع والتحكم بضبطها، وتهذيبها دون إسراف أو تجاوز للحدود التي شرعها الله سبحانه.

وهنا أود التنويه إلى أن الشهوات تتعرض إلى حالات ثلاث: حالة الطغيان، أو الإفراط، حالة الضعف أو التفريق، وحالة الوسطية أو الاعتدال، والاتصاف

---

(١) "سنن الترمذي"(مرجع سابق) ، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم ١٤٥٦ ؛ صححه الألباني ي الصحيحة برقم ٢٥٦١ .

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ١٤٥٥، وقال الترمذي : حسن صحيح .

بالحالتين الأوليين يعرض الجسم للأخطار، بينما الحالة الثالثة "حالة الوسطية" هي التي تمثل خطة التربية الإسلامية في تربية الدوافع وحاجات الطبيعة البشرية[١].

الفرع الثالث : ضوابط الوسطية في النوم :

يعتبر النوم من حقوق الجسم، وما ذلك إلا لأثره البالغ في التربية الجسمية، ولا يمكن أن يتم النمو السليم للجسم دون إشباع لهذا الدافع، وقد وازن الإسلام بين الإفراط والتفريط في ذلك، فلا يسعى الشخص في كل وقته أو جلّه على القيام بأمور العبادة والعمل، دون الاهتمام بهذا الدافع، وإشباع هذه الرغبة تمكيناً له في مواصلة العبادة والجهاد والسعي والعمل في الحياة [٢] .

ولما فهم عبد الله بن عمرو بن العاص اغتنام الوقت على نحو معين صرفه كله في العبادة الخالصة فانقطع إليها، فدعاه النبي ﷺ إليه فعلمه كيف يقسم وقته في المنافع بين الدنيا والآخرة، فقال : "يا عبدالله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم ، وأفطر، وقم ، ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً" [٣].

وفي حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أ صلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر ، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فلما علم النبي ﷺ بما قالوا أبان لهم عن منهج الإسلام في التربية الجسمية وذلك بإعطاء الجسم حقه من التمتع بالطيبات، وحقه في النكاح الشرعي، وحقه من النوم للراحة ولتجديد النشاط، وهذا

---

(١) الزهراني ، عبد الله " الوسطية في التربية الإسلامية." ص ١٨٠ .

(٢) " مدخل إلى التربية الإسلامية"(مرجع سابق) ص٣٧٣ ، "الوسطية في التربية الإسلامية"(مرجع سابق) ص١٧٥.

(٣) صحيح البخاري(مرجع سابق)، كتاب الصوم، باب : من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ٤٨٠/١، رقم ١٩٧٥.

المنهج يتضح لنا من خلال تصحيح النبي ﷺ للمفاهيم الخاطئة عن الأنفار الثلاثة حيث قال لهم : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" (١) . وإذا كان النوم بهذه المثابة في نظر الإسلام فإننا من ناحية أخرى أصبحنا نواجه اليوم الحياة الحديثة بجميع أعبائها، ومتاعبها و قلقها، وأمراضها العصبية وغيرها من الظواهر التي لا تقل عنها ضغطاً؛ ولذلك أصبح من الواجب أن ينجح نومنا في إبطال تأثير جميع السموم التي ينتجها الإرهاق اليومي في أجسامنا.

ولا شك أن أسلوب حياتنا يرتبط تماماً بنوع النوم الذي نصيبه ، فكيف يمكنك أن تجدد قواك، إذا كنت تعيش مثل الآلة المملوءة بالبخار أسابيع وشهوراً بل وربما سنوات ؟!

وكلنا يعرف أن المهدئات، وكذلك العقاقير المنومة، أصبحت تباع بالأطنان، ولكن المشكلة لا تقتصر على مجرد اضطراب الجهاز العصبي، فهناك ما لا حصر له من حالات الاكتئاب والقلق العصبي، والاضطرابات العاطفية، ولا يخفى أيضاً ما لهذه الحالات النفسية المضطربة من تأثير مباشر وعميق على نوع النوم. فما العمل إذن؟ إن النوم يجب أن يكون رد الفعل الطبيعي للجسم المسمم بالإرهاق الطبيعي، فإذا لم يكن هذا هو ما يحدث فعلاً، تحتم بذل كل جهد لإعادة بناء التناسق المختل (٢).

حقيقة إن إعادة بناء وظائف الجسم العادية لا يتحقق بين اليوم والليلة؛ لأنك إذا كنت تشكو الأرق دائما، أو تشعر ببرد خفيف على الرأس مثلا ، فلن تنجح سريعا في الحصول على نوم صحي؛لأن ذلك يحتاج إلى أيام عديدة كي يزول تماما.. فكيف تتوقع أن تختفي "عدوى" أصابت الجسم كله، في مدى ٢٤ ساعة فقط.فلنكن عقلاء !

---

(١) صحيح البخاري(مرجع سابق) ، كتاب: النكاح باب الترغيب في النكاح رقم ٤٧٧٦ .

(٢) فانتس سير ، وزميله "النوم فن للصغار والكبار" ص٧ وبعدها ترجمة د/ أحمد رضوان.

إن الوصول إلى الإدراك السليم لابد فيه من العودة إلى الحياة العادية مرة أخرى. والنوم هو الحياة، أو هكذا يمكن أن نقول؛ لذلك فإن التخطيط للنوم الصحي تأمين للحياة السعيدة. وهذا أمر سهل جداً، ولكن الناس معقدون للغاية.

وبالرغم من أننا جميعاً نتفق في القول بأن الحياة المتقنة التخطيط هي سر النجاح الرائع، فنادراً ما يفكر الناس في النوم عند التفكير في حياة قائمة على التخطيط [١]،

وإنني على يقين أن الإنسان الفعال لا شك أنه مرهف الحساسية تجاه "الوقت"؛ لأنه الوعاء الذي سيتم إنجاز كل شيء فيه، ومن دونه لا نستطيع أن نعمل أي شيء، وإن الطريقة التي نقضي بها أوقاتنا هي نتيجة مؤكدة للطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا. فلو تساءلنا: ما هو الشيء الأطول والأقصر في آن واحد، والأسرع والأبطأ في آن واحد معاً، والذي نهمله جميعاً، ثم نأسف عليه، ولا شيء يمكن أن يتم بدونه وهو يبتلع كل صغير وكبير، وينمي كل ما هو عظيم، لكان الجواب: إنه الوقت ![٢].

إذن فينبغي اغتنامه وتقسيمه بين منافع الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "إن لنفسك عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه" [٣].

المطلب الثاني : ضوابط الوسطية العقلية . وتحته فروع :

الفرع الأول: عوامل تحقيق الوسطية العقلية :

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٧، ١٠٨ .

(٢) الطالب، هشام" دليل التدريب القيادي "ص ١٩٣، ، وانظر : بكار، عبد الكريم "مدخل إلى التنمية المتكاملة "رؤية إسلامية" ص ٢١٥ ،

(٣) صحيح البخاري (مرجع سابق)في كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع رقم (١٨٦٧)

العقل الإنساني جوهرة فريدة ودرة ثمينة أودعها الله في الإنسان يتأمل به بديع خلق الله، ويحكم به على فاسد الأمور من صالحها بأمر الله، ويتبع به طريق الهداية ويتجنب به طريق الضلالة والغواية [١].

قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية : ١٣) .

وقد ندد القرآن الكريم بالذين يعطلون عقولهم عن العمل ولا يستفيدون منها في التأمل والتفكير في نواميس الكون، والاهتداء للخالق سبحانه، قال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٩ والحديث عن العقل على إطلاقه ليس هو موضوع البحث؛ وإنما موضوعه هو ضوابط الوسطية التي رسمها الإسلام لعمل العقل، وتتضح من خلال معايير الإسلام الثابتة – الكتاب والسنة – واللذان حددا للإنسان منهج التلقي الصحيح، والنظر القويم في الأعمال العقلية والمجالات الفكرية، حتى لا يقع فريسة للإفراط والتفريط، أو يتطاول غروراً على ما ليس له به علم .

وفي هذا الفرع نلقي الضوء على العوامل المساهمة في تحقيق الوسطية ثم نتبعه بفرع آخر في ضوابط تحقيق الوسطية العقلية، وثالث في منهج الوسطية العقلية .

أولاً : العوامل المساهمة في تحقيق الوسطية للجانب العقلي :

١. الإيمان الصادق :

---

(١) الشرقاوي ،احمد "أنظمة نحو تربية إسلامية " ، ص ٢٥، والوسطية في التربية الإسلامية(مرجع سابق) ، ص١٩٩.

لا شك أن العقل المسلم ينطلق من قواعد ثابتة تحقق له النظرة الصائبة، والتوجيه السليم الذي يضمن له الوسطية، ويجنبه الوقوع في الانحراف ومن أهم الأمور في ذلك الإيمان الصادق بالله تعالى حيث إن الإيمان هو الذي يحرك جميع الطاقات الإنسانية، ومنها الطاقة العقلية، ويوجهها الوجهة السليمة نحو العلم والمعرفة [١]. وهذا ما أكده ابن عمر رضي الله عنهما بقوله : "لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن" [٢].

ب / العلم النافع :

كما أن للإيمان بيقين العلم؛ لأنه الفطرة التي فطر الله الناس عليها فكذلك العلم بيقين العلم. قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ (محمد:١٩).

ولابد في العلم حتى يكون نافعاً أن يتفاعل مع الواقع لتعم الفائدة منه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٠) وقد نقل النبي ﷺ أصحابه في العلم والمعرفة إلى ميدان الحياة ومسارب الكون وربطهم بالزمن وهو رأس المال الحقيقي للإنسان ونبههم إليه فقال ﷺ ذات ليلة "أرأيتم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد" [٣]. أراد عليه الصلاة والسلام أن هذه المدة تخترم الجيل الذي هم فيه فوعظهم بقصر أعمارهم، ليأخذوا

(١) محمود ، عبد الحليم "التربية الروحية" ص ٢٥٩ .

(٢) الذهبي ، شمس الدين "سير أعلام النبلاء" ١١٢/٦، ١١٣ .

(٣) صحيح البخاري (مرجع سابق) كتاب العلم باب السمر في العلم ٢١١/١، رقم ٥٧٨ .

حذرهم ويستفيدوا من لحظات أيامهم [١] ، وحضّهم على التفاعل مع الواقع بقوله : "ليس الخبر كالعيان" [٢]

وقوله : "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" [٣] ، ودعاهم إلى الإبداع والابتكار كما في قوله ﷺ : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" [٤] فأثّر في تفكيرهم وسلوكهم أيما تأثير ففتق عبقريات في أنواع الميراث والصدقات الجارية، وصنوف المعرفة وفنونها [٥] .

كما حثّهم بفعله على الأخذ بأحدث أساليب المعرفة وترقيتها كما هو الحال في اتخاذه خاتم النبوة والمنبر[٦].

وفي المقابل تجد تعاليم الإسلام تحرم كل علم فيه ضرر أو يكون سبباً في الفساد ، كما قال تعالى : ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ﴾ (البقرة: ١٠٢) .

وخلاصة القول فإن العلم وفق منظور الإسلام مظهر من مظاهر النشاط العقلي وأهم سماته .

---

(١) حمادة ، فاروق "أسس العلم وضوابطه في السنة" ص ٥٧ ، وما بعدها .

(٢) الشيباني ، احمد بن حنبل "مسند أحمد" ٢١٥/١، والحاكم في المستدرك(مرجع سابق) ٣٢١/٢، وقال صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي "انظر: الهيثمي ، الحافظ " مجمع الزوائد" ١٥٣/١" .

(٣) البخاري (مرجع سابق) ، كتاب الأدب باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٥٢٩/١٠ .

(٤) مسلم (مرجع سابق)، كتاب التوحيد ، باب : ما يلحق الإنسان بعد وفاته ١/٣ ٢٥٥ رقم ١٦٣١ .

(٥) المرجع السابق، ص ٦٣، ٧٢، ٧٣ .

(٦) حديث الخاتم في صحيح البخاري (مرجع سابق) ، كتاب العلم، باب ذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم، ١٠٨/٦ ، وحديث المنبر في البخاري كتاب الصلاة، باب الخطبة على المنبر ٣٩٧/٢ .

قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت: ٥٣) .

ج / العمل الصالح :

ويأتي العمل لصالح كثمرة طيبة من ثمار الإيمان والعلم النافع، وهو النتيجة النهائية للنشاط العقلي، والإسلام لا يريد الإنسان أن يتوقف عند مظهري الإيمان والعلم فحسب، بل يطلب أن يتحول كل من الإيمان والعلم إلى طاقة فاعلة وممارسة عملية على أرض الواقع [١].

ولذا اقترن الإيمان بالعمل الصالح في معظم آيات القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾ (الأنعام: ١٢٢) .

الفرع الثاني: ضوابط تحقيق الوسطية العقلية :

حدد الإسلام للعقل مساره الذي يحق له السير فيه طلباً للمعرفة وأداء لدوره الذي خلق من أجله، وإعفاء له مما لا طاقة له به، وفي الوقت ذاته عصمه من التطرف ذات اليمين أو ذات الشمال، أو التطاول على عظمة الخالق – سبحانه – أو الخضوع للشهوات المذلة لكرامة الإنسان .. ولم يقحمه فيما ليس من شئونه ولم يبخسه قدره ويمنعه من مزاولة نشاطه في ميادينه الطبيعية [٢]، ولا يتحقق له ذلك إلا وفق ضوابط معينة هذه الضوابط منها ما هو خلقي ومنها ما هو علمي :

أولاً الضوابط الخلقية :

---

(١) الوسطية في التربية الإسلامية(مرجع سابق) ص ٢١٤ .

(٢) ابو سليمان ، عبد الحميد "أزمة العقل المسلم" ص ١١٢ وما بعدها. انظر: الخياط ، محمد جميل" المبادئ والقيم في التربية الإسلامية" ص ٦٤ .

١. الموضوعية : ونقصد بالموضوعية هنا : تخلي الإنسان عن عواطفه وانفعالاته وموروثاته التي لا يقوم عليها دليل نقلي أو عقلي تجاه أي مسألة من المسائل يحتاج فيها إلى أخذ قرار أو إصدار حكم، شريطة أن تكون القضية موضع الطرح ، مما يختلف فيها الأ فهام ويقبل فيها النقاش وهي على هذا، "تعد معياراً أساسياً من معايير البحث يقوم على الصدق والعلم والأمانة والبعد عن الأهواء الشخصية" (١).

وبما أن الإسلام بوسطيته العادلة قد دعا إلى التجرد والموضوعية وأكد على ذلك وبين مخاطر ترك هذا الخلق النبيل، فقد هيأ الإنسان ليكون أرضاً خصبة لمثل هذا الخلق ، وقد تجلى هذا الخلق الإسلامي النبيل في حال المودة في قوله تعالى :﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ (الأنعام: ١٥٢) .

والمتأمل كذلك في سورة الروم يلحظ الموضوعية التي جاءت بها أخلاق القرآن الكريم من خلال قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم: ٧) . فهاهو الكافر أبغض مخلوق إلى الله سبحانه لكفره وتخلفه ومع ذلك يصفه – سبحانه – هو وأمثاله بأنهم يعلمون، ويغفلون فهم عالمون بأمور دنياهم مع قصرها وسرعة زوالها ويغفلون عن الآخرة مع بقائها وخلودها" (٢).

٢. التثبت قبل إصدار الحكم .

عد بعض المفكرين التثبت من ثوابت الموضوعية، وذكر أن القرآن الكريم : "قد ركز على هذا الجانب حتى لا يقع المسلم في سلسلة من الأخطاء نتيجة للفهم الخاطئ ؛ لأن المخاطرة في التخلي عن هذا الخلق الإسلامي النبيل مرتبطة بعواقب

(١) صالح ، عبد الرحمن " الموضوعية في العلوم التربوية" ص ٦ ،وانظر : الحدري ، خليل " ومنهجية التفكير العلمي في القرآن" ص ٢١٧.

(٢) "منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم"(مرجع سابق) ، ص ٢٢٠ .

وخيمة ، سماها القرآن الكريم "الندم" وما له من آثار سلبية على الإنسان في جوانب حياته النفسية والاجتماعية، والسلوكية، وغيرها [١] .

ومن هنا جاء الأمر بالتثبت صريحاً في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ (الحجرات:٦).

وتارة في معرض النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ (النساء: ٩٤) ، وفي معرض القصص كما في قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع الهدهد حين تفقد الطير فلم يجده فلم يعمد إلى إنزال العقوبة به قبل أن يتبين الأمر، فقال تعالى حكاية عنه : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ ﴾ (النمل: ٢١) .

٣. الصدق في النقل .

الصدق خلق إسلامي رفيع يعكس ما في أعماق النفس المؤمنة من صفاء وحسن نية وأكد القرآن عليه بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ (التوبة، ١١٩)، كما حذرت السنة المطهرة من الكذب في قول النبي ﷺ : "إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور" .. الحديث [٢] . وصاحب التفكير العلمي المنضبط حين ينقل عن الآخرين كلاماً مسموعاً أو مكتوباً فإنه يتحلى بهذه الفضيلة وهو ما أكدت عليه منهجية البحث

---

(١) بكار ، عبد الكريم "فصول في التفكير الموضوعي" ص ٥١،.

(٢) صحيح البخاري(مرجع سابق) ، كتاب الأدب، باب : ما ينهى عن الكذب ، رقم ٦٠٩٤ .

العلمي المتميزة عند المسلمين التي تقول : "إذا كنت ناقلاً فالصحة وإذا كنت مدعياً فالدليل"[١].

٤. الأمانة العلمية .

أكد الإسلام على هذا الخلق النبيل على جهة العموم، في قاعدة عظيمة القدر، جليلة النفع، ألا وهي حفظ حقوق الآخرين، سواء أكانت مادية أم معنوية، منها الحقوق العلمية والفكرية [٢] .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (الشعراء: ١٨٣)، وعن أبي بكر الصديق ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"[٣].

٥. عدم استعداء الرأي الآخر عند الجدال .

من الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي تميز صاحب التفكير العلمي المنضبط حرصه على هداية الآخرين إلى الصواب خاصة في مواطن النقاش التي كثيراً ما تحتد فيها الأنفس وتتصارع فيها الحجج والبراهين، كل يريد أن يثبت وجوده ولربما أنكر أحدهم الحقيقة في ساحة الجدال عناداً ، واستكباراً، وقد جاء مصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ (الإسراء: ٥٣) ، فالمسلم لا يجادل الآخرين، ولا يستعديهم على الحق؛ لأن الحق مقصوده، ولعلمه أن كسب القلوب خير من كسب

---

(١) صابر ، حلمي "منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام" ص ١٦ ، ومنهجية التفكير العلمي (مرجع سابق) ، ص٢٢٤.

(٢) منهجية التفكير العلمي(مرجع سابق) ، ص ٢٢٦ .

(٣) صحيح البخاري(مرجع سابق) ، كتاب النكاح، باب: المتشبع بما لم ينل ، رقم ٥٢١٩ .

المواقف [١]، وقد كان دأب الإمام الشافعي – رحمه الله – محبة أن يصيب خصمه الحق عند المناقشة فكان يقول : "ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ"[٢].

ثانياً : الضوابط العلمية :

١. عدم قبول أي فكرة إلا بدليلها [٣] :

وقد أكد القرآن الكريم في منهجيته العلمية على أهمية التثبت من صدق المعلومة التي تبنى عليها المواقف. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالدليل النقلي أو العقلي، وقد جاءت المطالبة بالدليل على صدق ما يدلي به الإنسان في مواطن كثيرة من القرآن منها قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ ﴾ (الأنعام: ١٤٨) .

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤ ﴾ (النمل: ٦٤) .

٢. عدم خوض الإنسان في قضية لا يحسنها [٤]:

وهذا ضابط علمي قرآني لصاحب التفكير السليم الذي يعرف قدراته وإمكاناته، فلا يتحدث في قضية لا يحسن الحديث عنها، ولا يقتحم مسألة إلا وهو متخصص فيها. وقد أكد على ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٨ .

(٢) الرازي ، ابو عبد الله " آداب الشافعي ومناقبه" ص ٣٢٦ .

(٣) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم (مرجع سابق) ، ص ٢٣٢، وفصول في التفكير الموضوعي (مرجع سابق) ، ص ٢٦٠.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء:٣٦) .

٣. العناية بالمصطلحات والمفاهيم .

هذا من أهم مستلزمات منهجية التفكير السليم التي أكد عليها القرآن الكريم، فإن العناية بالمصطلحات أمر بالغ الشأن ما دامت اللغة "ظاهرة اجتماعية تخضع لكل ما تخضع له الضوابط الاجتماعية الأخرى، وهي تمر في كل أطوارها بعين المراحل التي يمر بها الكائن الحي"(١) . وإن المسلم عموماً – فضلاً عن الباحث العلمي – يدرك أثر الكلمة وخطورة اللفظ فهو يملك الكلمة ويزنها قبل أن يخرجها حتى لا تكون هناك عواقب وخيمة من جراء انفلاتها، ومن حق المستمع للكلمة أن تحدد له بوضوح، وأن يجلى معناها حتى لا يختلط فهمه ويضل فكره لكون اللغة ليست أداة للتوصيل فحسب ، بل هي أداة لتشكيل الفكر أيضاً . يقول ﷺ : "إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في النار سبعين خريفاً"(٢).

ويقول الشاعر :

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدى عيوب ذوي العقول المنطق (٣)

والمصطلحات باب خطير يلج منه المغرضون عندما يريدون تمرير ألعوباتهم على دهماء الناس، فيستخدمون عند طرحهم تعميمات خطيرة، يريدون منها شيئاً، والناس تفهم منها شيئاً آخر : "كل هذه الملابسات جعلت إمكانات التلاعب

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي (مرجع سابق) ص ٢٦٠ .

(٢) مسلم (مرجع سابق) كتاب الزهد والرقائق، باب المتكلم بالكلمة يهوى بها في النار رقم ٢٩٨٨ .

(٣) البيت للشاعر المخضرم صالح بن عبد القدوس وهو من الكامل ت١٦٠ ورد في إعلام الناس بما وقع للبرامكة للإتليدي ١١٥/٢

بالألفاظ، واتخاذها وسيلة للتضليل بدل أن تكون وسيلة للإبانة والتوضيح واسعة جداً) [١] .

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ (الحجرات: ١٤) ، فقد ذكر الواحدي – رحمه الله – : أن الآية نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول اللهﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله هذه الآية فيهم"[٢] . وهناك نماذج لهذه المصطلحات العامة في دلالتها والضبابية في مقصود أصحابها من هذه المصطلحات، مصطلح "التمييز" بين الدين والدولة بدلاً من مصطلح "الفصل" ومصطلح "التنوير" : بدلاً من التغريب وهلم جرا [٣].

٤. التناسب بين المجال المعرفي والمنهج العلمي :

وهذا ضابط علمي قرآني يؤكد على أهمية المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة : وضرورة تناسبه مع المجال المعرفي الذي يبحث فيه، فالتقدم العلمي مرهون بطريقة البحث وتقدم البحث يعتمد على المنهج ويدور معه وجوداً وعدماً، صدقاً وزيفاً" [٤].

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي، ص ٢٦١، وانظر: سلطان ، جمال " ثقافة الضرر ، ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) النيسابوري، الواحدي " أسباب النزول" ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣) ثقافة الضرار (مرجع سابق) ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) بدر ، احمد "أصول البحث العلمي ومناهجه" ص ١٣ ، ومنهجية التفكير العلمي في القرآن (مرجع سابق) ، ٢٤٦.

وقد وضح ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الزخرف: ١٩) .

فقد زعم المشركون أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ومنهج علمي دقيق يوصل إلى هذه النتيجة : ولا يمكن أن يكون هناك منهج علمي يثبت ذلك غير المشاهدة ، فإما أن يكونوا مع الله حين خلقهم وهذا كذب وافتراء على الله أو يكونوا قد شاهدوا الملائكة عياناً وهذا بهتان عظيم ؛ لذا أنكر الحق سبحانه عليهم ذلك فقال سبحانه: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الطور ١٩) .

٥. الإحاطة بالقضية عند مناقشتها .

ويقصد بالإحاطة هنا التوجيه في النظر المعرفي إلى جميع مادة المعرفة، واستجماع المعطيات للقضية المعنية التي يقصد العقل إلى كشف الحق فيها" [١] وقد شنع القرآن الكريم على أصحاب عقلية البعد الواحد الذين يتخذون مواقفاً ويصدرون أحكاماً قبل أن يحيطوا بالقضية [٢] .

قال تعالى:﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية (يونس : ٣٩) .

٦. تلقي المعرفة من مصادرها الصحيحة[٣] :

يجب على الإنسان عامة وخاصة المسلم، أن يتلقى المعرفة من مصادرها الصحيحة، فإن لكل معرفة مادية أو شرعية على اختلاف فروعها مصادرها التي

(١) النجار ، عبد المجيد " دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين "ص ٢٨٢ .
(٢) فصول في التفكير الموضوعي (مرجع سابق) ص ٢١٩ .
(٣) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم (مرجع سابق) ، ص ٢٥٣ .

تؤخذ منها وقد أكد القرآن الكريم سؤال المختصين في أي فرع من فروع المعرفة الشرعية وغيرها، فقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾ (الأنبياء: ٧) .

٧. الانفتاح على خبرات الآخرين والإفادة منهم [١] .

يؤكد الإسلام على أصحابه أن يلتقطوا الحكمة من كل فم ينطق بها ما دامت حكمة، وليس من المنهجية العلمية في التفكير أن يرفض الباحث المسلم حكمة من فم لا يؤمن بالله فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : "خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت" [٢] .

وقد أكد على هذه المنهجية رسول الله ﷺ حين أقر أبا هريرة في تعلمه من الشيطان أن آية الكرسي حرز من الشيطان، وأن من قرأها حين يأوي إلى فراشه لن يزال عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة : "أما إنه قد صدقك وهو كذوب"(٦)[٣] . وقد تعلم نبي الله سليمان عليه السلام من الهدهد حين قال له كما حكى الله سبحانه عنه ذلك، بقوله : ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ ﴾ (النمل: ٢٢) .

الفرع الثالث : منهج الوسطية العقلية :

انطلاقاً من المنزلة الرفيعة التي وضعها الإسلام للعقل فقد حدد له طريقاً واضح المعالم يسير على ضوئه حتى لا يضل ولا يشقى، وهذه الحدود وتلك المعالم هي التي تبين طريق الوسطية حيث إنها تقوم على أدلة من الكتاب والسنة، ومتى خرج

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٦ .

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ، ١٦٨/٢ .ولم أقف علي حكم لهذا الحديث

٣)– صحيح البخاري (مرجع سابق) كتاب الوكالة باب إذاوكل رجلا فترك الوكيل شيئافأجازه الموكل رقم ٢٣١١

الإنسان عن تلك الحدود فقد ظلم نفسه، وجنى على عقله إما بالإهمال أو بتكليفه ما لا يطيق .

وأهم ما يميز هذه المعالم أن الإسلام يقرر أنه لا تعارض بين الوحي والعقل؛ لأن الوحي قد رسم المعالم لسير العقل في مسار الوسطية التي ميز الله بها هذه الأمة الشاهدة على الأمم السابقة فكان من أهم خصائص منهج الوسطية العقلية ما يلي :

أولاً : تقديم الشرع على العقل .

يستمد العقل المسلم وسطيته من علم الوحي، ويرجع الانحراف الفكري الذي وقع فيه أهل الكلام والفلسفة إلى أنهم جعلوا العقل من أصول العلم وجعلوا الوحي تابعاً له بل بعضهم حكمه في نصوص الوحي ذاتها، فلا يقبل منها إلا ما أراده العقل ووافقه في حين أن الإيمان يرتبط بالعقل في العقيدة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً حيث تتضافر الآيات القرآنية موجهة خطابها لقوم يعقلون، ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون، ويفقهون.. الخ؛ لأنهم هم المرجوون للنظر في آيات القدرة الإلهية، وتدبر نظام الكون المحكم" [(١)] وفي ظل هذه المنهجية التي تحقق الوفاق بين العقل والوحي يسلم المجتمع من الانحراف باسم العقل، ولا للانحراف باسم الدين[(٢)].

ثانياً : وسطية النظر العقلي وميادينه :

حيث إن منهج النظر العقلي في الإسلام منهج شامل، ومرن لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان؛ لأنه مجرد طريقة أو أداة للبحث، ومن ثم يعلو على المتغيرات النسبية ويظل ساري المفعول في أي عصر أو أي بيئة"[(٣)] .

---

(١) بنت الشاطئ ، عائشة " الشخصية الإسلامية" ، ص ١٤٨ .

(٢) ابو سليمان ، عبد الحميد" أزمة العقل المسلم (مرجع سابق) ص ١٢١، والوسطية في التربية الإسلامية،(مرجع سابق) ص٢٣١ ما بعدها .

(٣) خليل ، عماد " مدخل إلى إسلامية المعرفة " (مرجع سابق) ، ص ٣٢ .

لذا فالإسلام يوجه العقل إلى الميادين التي يستطيع السير فيها، ويعفيه مما لا يطيق وعلى سبيل المثال العقل يعجز عن تصور الذات الإلهية شكلاً أو حيزاً، فماذا يجدي عليه التفكير في ذلك ؟!

لذا فإن اقتحام العقل منفرداً في هذه الميادين يعتبر انحرافاً عن وظيفته وميادينه التي يراها" [(١)].

المطلب الثالث : ضوابط الوسطية الروحية. وتحته فروع :

الفرع الأول: مظاهر تحقيق الوسطية الروحية ، وتحت مسائل :

المسألة الأولى : معايير الوسطية في الجانب العقدي .

لا يكفي المسلم مجرد إعلانه باللسان أنه مؤمن فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (البقرة: ٨، ٩) .

ولا يكفيه مجرد معرفته الذهنية بحقائق الإيمان، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان ولم يؤمنوا، قال تعالى ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (النمل:١٤) .

ولكن الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس، ويتسم بالوسطية ويوافق الفطرة التي فطر الله الناس عليه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠)، فالعقيدة الإسلامية قائمة على معيار الوسطية لا تجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً.

---

(١) ابو العنين ، علي "فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم" ص ١٦٩ .

ولقد ضلت طوائف كثيرة في هذا الباب فهم بين إفراط وتفريط، فاليهود وصفوا الله تعالى بصفات النقص التي تلحق بالمخلوقين، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ (آل عمران: ٨١)، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (آل عمران: ٢١، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ (المائدة: ٦٤) .

وفي المقابل نجد انحراف النصارى الذين غلب عليهم طابع الإفراط حيث غلوا في المسيح عليه السلام وزعموا أنه إله ابن إله ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (التوبة : ٣٠، ٣١) [1]

(١) العمر ، ناصر " الوسطية في ضوء القرآن الكريم" ص ١٣٩، و الفرفور ، محمد "الوسطية في الإسلام" ص ٨٨ ، و الترتوري ، حسين "وسيطة الإسلام وواقعيته " ص ١٠١، ١٠٢ .

بينما أمة الإسلام أمة وسط بين الأمم فلم يغلوا كما غلت النصارى في أنبياء الله ورسله، ولم يحيفوا عنهم كما جفت اليهود ومن أوضح الأدلة التي تبرز حقيقة الاعتقاد لهذه الأمة ، قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ الآية (البقرة: ٢٨٥) ، وقوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾ الآية (البقرة: ١٣٦) . وهذا أمر الإيمان العام الشامل وما يتبعه من الانقياد والاستسلام.

وقد اكتسبت أمة الإسلام خيريتها بسبب إيمانها المتميز عن سائر الأمم في شكله ومضمونه، وسلوكها الصراط المستقيم الذي تعبدها الله عز وجل به قال تعالى : ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ (البقرة: ١٤٢، ١٤٣) فالكاف في قوله "كذلك" صلة ورابط قوي بين هدايتهم للصراط المستقيم وبين جعلهم أمة وسطاً [١] .

إذن فالضابط العام في العقيدة هو اقتفاء الصراط المستقيم الذي تعبدنا الله به فيما يجب على العبد من الإيمان به تجاه الله تعالى، وتجاه ملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. ويتضح ذلك تفصيلاً فيما يلي :

١ ـ الإيمان بالله تعالى وفيه ينبغي أولاً : الإخلاص في المحبة لله تعالى فلا يتخذ العبد نداً لله في هذا الحب، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ (البقرة: ١٦٥) .

---

(١) ابن عاشور ، محمد الطاهر " التحرير والتنوير " (مرجع سابق) (١٥/١/٢)، والطبري ، محمد بن جرير "جامع البيان " ٦/٢ .

ثانياً : وجوب إفراد الله تعالى في الدعاء، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (يونس: ١٠٦).

ثالثاً: وجوب إفراد الله عز وجل بالخوف منه، قال تعالى : ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾(النحل: ٥١).

رابعاً : ومن حيث الأسماء والصفات ينبغي أن نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله الكريم محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تشبيه [(١)].

٢. ما يتعلق بالملائكة: فيجب الإيمان بالملائكة الذين وردت أسماؤهم في الكتاب والسنة والتي لم ترد ونؤمن بما ذكر من أصنافهم و أفعالهم في الكتاب والسنة، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٩٧)، وقال سبحانه :﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢) [(٢)] .

٣. ما يتعلق بالرسل وكتبهم : فيجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله تعالى قد أدى أمانته، وبلغ رسالته على الوجه الأكمل، ويجب علينا طاعتهم وعدم مخالفتهم. قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾ (النساء: ٨٠) ، ويجب كذلك الاعتقاد بأنهم أكمل الخلق علماً وعملاً. قال تعالى:﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه: ٣٩) ، وأنهم لا يملكون شيئاً من خصائص الألوهية، قال تعالى

(١) ياسين ، محمد نعيم " ٢٠٠ سؤال وجواب من الإيمان" ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ (الأعراف: ١٨٨) [١].

كما يجب الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل والتي سماها الله تعالى لنا في القرآن والكتب الأخرى التي لم تسم لنا، قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ (المائدة: ٤٤) ، وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥ ﴾ (الإسراء: ٥٥) ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (البقرة: ٢١٣) [٢] .

٤ . ما يتعلق باليوم الآخر: فيجب الإيمان به إجمالاً وتفصيلاً يؤمن بكل ما أخبر به الله عز وجل في كتابه، وأخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، أو البعث والحشر والصحف، والحساب والميزان، والحوض، والصراط، والشفاعة، والجنة والنار ، قال تعالى : ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(البقرة: ١٧٧).

٥. أما ما يتعلق بالقضاء والقدر : فيجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر خيره وشره ويقصد بالإيمان بالقدر، الإيمان بعلم الله القديم، والإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة .

قال تعالى :﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١ ﴾ (يونس: ٦١) ، وقال تعالى:

---

(١) القاري ، علي الملا " الفقه الأكبر وشرحه" ، ص ٥٦ .

(٢) المرجع ما قبل السابق ، ص ٨٨ .

﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٢٨) ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التكوير: ٢٩) ، وقال تعالى : ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام: ١١١) .

المسألة الثانية : معايير الوسطية في الجانب التعبدي :

إن العبادة بمعناها الشامل هي الوسيلة الفعالة لتربية الروح باستمرار واتصالها بالله تعالى لتستمد منه الطاقة الروحية، وهذا الاتصال بالله تعالى له ضوابط شرعية في المنهج الإسلامي تمنع من الانحراف والشذوذ، ومن رحمة الله بعباده أن ألزمهم بمنهج عبادي من وضعه هو كي لا يزيد عليه الإنسان ولا ينقص منه وهكذا لتؤدى العبادات غاياتها التهذيبية للنفس البشرية دون خلل أو اضطراب [(١)]. فكانت الوسطية في تشريع العبادات هي الميزان الذي يحمي المسلم من الزيغ أو الشطط .

ولكي تبرز هذه السمة بوضوح فلابد من التعرض للمناهج الأخرى السائدة فيما يتعلق بالعبادة تفريطاً أو إفراطاً وذلك كما يلي :

المنهج الأول: ويمثله اليهود في تفريطهم وجفائهم – فلو تأملنا التوراة – بعد تحريفها – لوجدنا تقديس المادة غلب على بنودها فلا تقرأ في أسفار التوراة ذكراً للآخرة حتى ما ورد فيها من وعد ووعيد فإنما هو متعلق بالدنيا فقط، أي لتحقيق كسب عاجل أو خوفاً من عقوبة عاجلة .

وقد وصفهم القرآن الكريم وبين مدى تعلقهم بالحياة الدنيا، فقال سبحانه : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ ﴾ (البقرة: ٩٦)، أي حياة حتى لو كانت حياة بهيمية؛ لأنهم يخشون الموت. قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا ﴾ (البقرة: ٩٥) .

(١) القادري ، مروان "التوازن بين الروح والعقل والجسد" ص ٥٥ .

أما المنهج الثاني : وهو المنهج القائم على الروحانيات، وذلك بإعلائها وتمجيدها، والإغراق في مفهوم العبادة والرهبنة، ويمثل هذا المنهج النصارى الذين غلوا وابتدعوا رهبانية قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وتمنع كل أنواع الزينة والطيبات من الرزق .

قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد: ٢٧) [١].

ونجد الشريعة الإسلامية وسط وعدل في العبادات بين المنهج القائم على التفريط والجفاء وبين المنهج القائم على الغلو والإفراط .

وهناك ضوابط عامة لقبول أي عمل في الإسلام ويدخل فيه العبادة وهي :

١ . أن تكون العبادة تقرباً لله تعالى ولا يقصد بها غير وجهه سبحانه .

٢. الإخلاص في النية .

٣. أن يكون العمل على وفق ما شرع الله دون غلو أو تفريط [٢] .

ويمكن أن تتضح معالم الوسطية الإسلامية في جوانب متعددة مثل الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج وغيرها .

يقول الشاطبي : "إذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع من الطرف الآخر، فطرف التشديد وعامة ما يكون في التخويف يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف وعامة ما يكون في الترغيب

(١) الصلابي " الوسطية في القرآن الكريم " ص ٤٩١، ٤٩٢ .

(٢) الميداني ، عبد الرحمن حسن" الثقافة الإسلامية" ص ١٥٦/١، مقرر السنة الأولى ، لطلاب جامعة أم القرى مطابع الجامعة .

والترخيص يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً وواضحاً وهو الأصل الذي يرجع إليه" [١].

وهنا نضرب مثالاً نقف من خلاله على وسطية الإسلام في العبادات وهو الصلاة .

والصلاة تسير متدرجة مع حياة الإنسان تتغير صورتها بتغير أحوال الإنسان في السفر، والمرض، والخوف، والصحة، والتشريع يساير مصلحة الإنسان وحالته؛ فيكثر التكاليف حيث الإقامة والاطمئنان والصحة، ويقللها حيث السفر والمرض والخوف. روى معاذ بن جبل ﷺ قال "جمع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء" قال أي (أبو الطفيل وهو الراوي عن معاذ) فقلت: ما حمله على ذلك؟ فقال: أراد أن لا يحرِج أمته [٢].

وبعد .. فهذا غيض من فيض يمثل الوسطية الحقيقية للتشريع الإسلامي وسطية عادلة توازن بين مطالب جوانب الشخصية الإنسانية فتضمن القيام بمهامها. بينما لو انحر ف الإنسان عن هذه الوسطية فأخر الصلاة عن وقتها مثلاً، أو تكاسل عنها فهذا تفريط لا تحمد عقباه .

المطلب الرابع : الإسراف في جانب المال وإدارة الإنفاق. وتحته فروع :

الفرع الاول : الاسراف في النفقة على النفس ومن يعول

يعد الإسراف درباً من دروب الفساد في الأرض لأن فيه تبديداً للأموال في غير وجوهها المستحقة وجحوداً لنعمة الله سبحانه بالإضافة إلى ما يحدثه الإسراف من فساد في القلوب

---

(١) الشاطبي ، محمد بن اسحاق " الموافقات " ١١٣/٢ ، ١١٤ .

(٢) النيسابوري ، مسلم بن الحجاج (مرجع سابق) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب صلاة المسافرين ٢١٦/٥ رقم ٧٠٦ .

والأخلاق واختلال في الحياة الاجتماعية لذلك نهى القرآن الكريم عن الإسراف وبين أن المسرفين فئة لا يحبها الله حيث يقول سبحانه ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ الأعراف: ٣١ قال بعض السلف في تفسير هذه الآية : "جمع الله الطب كله في نصف آية" وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ " ، وروى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة" (١) . وروى الإمام أحمد عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أن رسول الله قال : (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده" (٢) . وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال سمعت رسول الله يقول : "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه"(٣) (٤)

ويقول الإمام الشوكاني : "أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من أهل النار ... والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه وعلى من يعول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه ، والتبذير مخالف لما شرعه الله

---

١) – البخاري ، محمد بن اسماعيل (مرجع سابق) صحيح البخاري كتاب اللباس باب قوله تعالى " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده " ٤٤٧/١٤ رقم ٦٧٨٢

٢) – ابن حنبل ، احمد " المسند " ١٨١/١ حديث رقم ٦٦٩٥ مسند عبد الله بن عمر قال عنه الأرناؤوط اسناده حسن .

٣)– ابن حنبل ، احمد " المسند " ٤/ ١٣٢ رقم ١٧٢٢٥ قال عنه الارناؤوط رجاله ثقات وفيه انقطاع .

٤)– القرشي ، اسماعيل بن كثير " تفسير القران العظيم " ٢١٠/٢

لعباده وواقع في النهي القرآني ، وهكذا من حرم حلالاً أو أحل حراماً فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين ، ومن الإسراف الأكل لا لحاجة وفي وقت شبع" (١)

ويرى الإمام بن عاشور أن النهي عن السرف نهي إرشاد وليس نهي تحريم في بعض الحالات ويخالفه في حالات أخرى فإذا تجاوز الإسراف حدود إمكانيات المسرف بحيث أحدث خللاً في التوازن الاقتصادي للأسرة فإن ذلك يدخل في دائرة التبذير غير المحمود ، وكذلك إذا كان الإسراف في ظل وضع اقتصادي صعب بحيث يعيش نسبة من أبناء المجتمع على الكفاف والقلة فالأولى توجيه هذه الأموال الزائدة لفقراء المجتمع ومساكينهم لنقلهم من حالة الفقر إلى حالة الكفاية ، فالإسراف والتبذير في ظل هذا الوضع الاقتصادي يصل إلى درجة التحريم ويكون المسرف والمبذر من إخوان الشياطين لاشتراكهم معهم في جحود نعمة الله سبحانه ؛ لذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن التبذير ووصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين حيث يقول سبحانه : " ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: ٢٧ يعني أنهم في حكمهم إذ المبذر ساع في الإفساد كالشياطين ، فمن أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرضه ذلك للنفاد فهو مبذر ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر " (٢) ،

وأما عن حدود الإسراف والتبذير فيقول فالقرآن الكريم ينهى عن التبذير والذي هو إنفاق المال في غير حق ، فلو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً ، فليست هي الكثرة والقلة في الإنفاق إنما هو موضع الإنفاق ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين لأنهم ينفقون في الباطل ، وينفقون في

---

١)- الشوكاني ، احمد بن علي " فتح القدير " ٢/ ٢٠٠ . وانظر : عنبر ، محمود " الاسراف في ضوء القران الكريم - دراسة موضوعية " ص ١٠

٢)- ابن عاشور ، محمد الطاهر " التحرير والتنوير " ٩٥/٨ . وانظر : عنبر ، محمود " الاسراف في ضوء القران الكريم - دراسة موضوعية " ص ١١

الشر ، وينفقون في المعصية، فهم رفقاء الشياطين وأصحابهم ، فالشيطان لا يؤدي حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ، فالتوازن في النفقة هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي والغلو كالتفريط يخل بالتوازن الاقتصادي، فالتوازن والاعتدال في النفقة سمة من سمات الإيمان يحققها الإسلام في الأفراد والجماعات ، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله ، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والحياة الاقتصادية بالإضافة إلى فساد القلوب والأخلاق.

الفرع الثاني : الاسراف في مال اليتيم

اليتيم في الإسلام من فقد أباه ومعيله قبل سن البلوغ ، هذا السن يحتاج صاحبه لعناية ورعاية ووصاية على ماله إن كان له مال ، والوصي على مال اليتيم هو أمين عليه يجب أن يتعفف عنه إن كان غنياً وأن يأكل منه بالمعروف إن كان فقيراً محتاجاً ، وقد نظم الله سبحانه عملية إعادة مال اليتيم إليه على مراحل لتعود أمانته إليه حين يصبح قادراً على التصرف به بحكمة وأناة وروية وقد حذر الله الأوصياء من الإسراف والتبذير في أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم في حال فقرهم وفي ذلك يقول جل في علاه : " ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾ النساء: ٦ نزلت هذه الآية في ثابت بن رفاعة وفي عمه وذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه وهو صغير فأتى عم ثابت الى النبي فقال : إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من (ماله ، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية

يقول الإمام القرطبي في معنى الآية : "اختلف العلماء في معنى الاختبار فقيل : هو أن يتأمل الوصي أخلاق يتيمه ويستمع إلى أغراضه ، فيحصل له العلم بنجابته ، والمعرفة بالسعي في مصالحه وضبط ماله... فإذا توسم الخير قال علماؤنا وغيرهم لا بأس أن يدفع إليه شيئاً من ماله يبيح له التصرف فيه ، فإن نماه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار ووجب على الوصي تسليم جميع ماله إليه وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده ، وأما قوله تعالى " وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ " فليس المعنى أن أكل مالهم من غير إسراف جائز ، بل المراد ولا تأكلوا أموالهم فإن أكله إسراف ، وبذلك ينهى الله سبحانه وتعالى الأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير المباح لهم إن كانوا فقراء محتاجين .([1])

ويقول الإمام الزمخشري : معنى" وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ " لا تفرطوا ولا تسرفوا في إنفاق أموال اليتامى وتقولوا ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ، ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً وبين أن يكون فقيراً فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع ، ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفاقاً على اليتيم وإبقاء على ماله .([2])

ويقول بعض الباحثين : "ويبدو من خلال النص الدقة في الإجراءات التي يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد ، كذلك يبدو التشديد في وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم بمجرد تبين الرشد بعد البلوغ وتسليمها لهم كاملة سالمة ، والمحافظة عليها في أثناء القيام عليها وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها مع الاستعفاف عن أكل شيء منها مقابل القيام عليها إذا كان الولي غنياً ، والأكل منها في أضيق الحدود إذا كان الولي محتاجاً"

وبهذا يتبين لنا أن الإسراف في مال اليتيم صورة قبيحة من صور الإسراف لأن فيه

---

١)- القرطبي ، احمد بن عبد الله " الجامع لأحكام القران " ٣٩/٥

٢)- الزمخشري ، محمود جار الله " الكشاف " ٤٦٤/١

خيانة للأمانة واستضعافاً لليتيم ، كما أنه تصرف يدل على جشع الوصي وضعف نزاهته وغياب استشعاره لرقابة ربه . ([1])

الفرع الثالث : التطفيف في المكيال والميزان ، واحتكار السلع.

لقد اهتمت الشريعة الإسلامية بقضايا المال اهتماماً كبيراً، وكانت تهدف من ذلك إلى ضبط الميول البشرية في مسألة السلطة على مستوياتها كافة، ومن هنا كانت الأحكام المتصلة بعدم كنز الثروات وتشريع الفرائض المالية كالزكاة والخمس وغيرهما، إلى جانب الحيلولة دون تمركز المال، ﴿كَي لا يكُونَ دولَةً بينَ الأَغْنياء منكُمْ﴾ (الحشر: ٧)، حذراً من ظهور طبقية مجحفة قد تضر بالاستقرار الاجتماعي والسياسي العام. ولا شك أن كلا من الاحتكار والتطفيف في المكيال يعد جريمة اقتصادية واجتماعية كبرى ، وثمرة من ثمرات الانحراف عن منهج الله ، ولهذا كانا محرمين و ممنوعين وما من شك أن من كان عنده وازع دينى فإنه لا يحتكر، ولا يطفف ، لأن هذا الوازع الدينى قد غرس فيه الخوف من عقاب الله فى الدنيا والآخرة ، وفي مفهوم الاحتكار يقول ابن فارس: «الحاء والكاف والراء أصل واحد، وهو الحبس. والحكرة حبس الطعام منتظراً لغلائه، وهو الحكر، وأصله في كلام العرب الحكر، وهو الماء المجتمع كأنه احتكر لقلّته" ([2]) ويقول الفراهيدي : "الحكر، الظلم في النقص وسوء المعاشرة، وفلان يحكر فلاناً: أدخل عليه مشقة ومضرة في معاشرته ومعايشته، وفلان يحكر فلاناً حكراً. والنعت حكر ... والحكر: ما احتكرت من طعام ونحوه مما يؤكل، ومعناه الجمع، والفعل: احتكر، وصاحبه محتكر ينتظر باحتباسه الغلاء " ([3])

والذي يظهر من كلمات اللغويين أنّ الاحتكار . بوصفه عملاً وفعلاً . يحوي خصائص وهي:

---

١)- عنبر ، محمود " الاسراف في ضوء القران الكريم - دراسة موضوعية " ص ١٦-١٧

٢)- ابن فارس ، احمد بن زكريا " مقاييس اللغة " (مرجع سابق) ص ٢٣٤

٣)- الفراهيدي ، الخليل بن احمد " العين " ٧٨/١

١. الجمع والحبس، وهذا من الواضحات، ولا تمييز بين الجمع والحبس خلافاً لبعض الفقهاء ، فلم يظهر لنا أنّ عملية الجمع للسلع مقومة لهوية الاحتكار لغةً، فلو فرضنا أنه اشترى بضاعة بأعداد كبيرة لا يريد بذلك جمعها من السوق وصادف أنّ هذه البضاعة قد نفذت من السوق- لا أنه جمعها- ، فتمنّعه هنا من البيع يصدق عليه الاحتكار لغةً.

٢ . انتظار غلاء السعر والتربص به ، ومعنى ذلك أنّ حبس السلعة لغرض قوت نفسه وعياله وعشيرته لا بهدف ارتفاع القيم والأسعار، لا يدخل ضمن مفهوم الاحتكار لغةً. فالغاية التجارية شرط أساس في عملية الاحتكار، والمعيار العملي هو حصول ارتفاع القيم السلعية المحتكرة ، فالمعيار هنا مرجعه إلى حالة الأسعار وحركة ارتفاع القيم لا مدّة زمنية معينة ، ووفقاً لذلك يمتاز الاحتكار عن الادّخار؛ فإن الثاني لا يرتبط بقصد ارتفاع الأسعار أو التحكّم بالسوق، فقد يدّخر الإنسان شيئاً لنفسه وعياله مهما كان كثيراً ولا يسمى ذلك احتكاراً ما لم يدخل القصد التجاري والربحي في عملية الادّخار هذه.

٣. كون المحتَكَر سلعةً تخضع للعرض والطلب في السوق أو طعاماً على الخلاف الذي أبنّاه قبل قليل، وهذا واضح في كلمات أهل اللغة، وعليه فأي حبس أو جمعٍ لأمور لا تدخل في إطار التداول في السوق لا يعني احتكاراً.

٥ . قد يفهم من كلمات اللغويين أنّ الاحتكار مرتبط بالحاجة في طرف طالب السلعة المحتكرة أو بكونه ملحقاً الضرر أو المشقة أو التضييق على الناس، ويلاحظ ذلك من خلال المعاني الحافّة التي ذكرت للاحتكار كالعسر والظلم وسوء المعاشرة وإدخال المشقّة ونحو ذلك، وهذا معناه أنّ احتكار سلعة ما لا يفضي إلى مشقة أو ضرر على الناس أو تضييق لا يدخل ضمن مفهوم الاحتكار لغةً حتى لو ارتفع سعرها وثمنها في السوق، كبعض السلع التي لا يطلبها في العادة إلا الأثرياء الذين لا يتضررون من ارتفاع قيمتها السوقية. اللهم إلا أن نحمل كلمات اللغويين على الحالة

الغالبة للاحتكار، لاسيما مع جعل قيد «الطعام» الذي أدرجوه ممّا يشير إلى هذه الحالة الغالبة آنذاك، لا أنّ المفهوم غير صادق لغةً." .([1])

الاحتكار في الاصطلاح الفقهي

ميز ابن عابدين (الفقه الحنفي) بين التعريف اللغوي والشرعي للاحتكار فعرفه شرعاً بقوله: " اشتراء طعام ونحوه وحبسه إلى الغلاء أربعين يوماً " ([2])

ومن الواضح هنا إدخال عنوان الشراء السابق في تعريف الاحتكار، وكذلك إقحام المدّة الزمنية فيه.

وعرفه الكاساني الحنفي بقوله: «أن يشتري طعاماً في مصر ويمتنع عن بيعه وذلك يضر بالناس، وكذلك لو اشتراه من مكان قريب يحمل طعامه إلى مصر، وذلك المصر صغير، وهذا يضر به يكون محتكراً، وإن كان مصراً كبيراً لا يضر به لا يكون محتكراً» ([3]).

ويبدو من الكاساني أنه يقحم الإضرار في تعريف الاحتكار من الزاوية الفقهية، فكأنّ الإضرار هو المعيار الذي يدور الاحتكار حوله، ولهذا ميز بين المصر الصغير والمصر الكبير من هذه الناحية.

وعرفه النووي في المجموع (الفقه الشافعي) بعد تقييده بالأقوات بأن يبتاع في وقت الغلاء ويمسكه ليزداد في ثمنه ([4])، لكنه يقدّم له تعريفاً أكثر وضوحاً في روضة الطالبين فيقول: «أن يشتري الطعام في وقت الغلاء، ولا يدعه للضعفاء، ويحبسه ليبيعه بأكثر عند اشتداد الحاجة، ولا بأس بالشراء في وقت الرخص ليبيع في وقت الغلاء» ([5]).

---

١)- حب الله ، حيدر " دراسات في الفقه الاسلامي المعاصر "بحث : فقه الاحتكار في الشريعة الاسلامية ٣/ ١٢ عام ٢٠١١ م بتصرف .

٢)- حاشية رد المحتار ٧١٧/٦

٣)- الكاساني ،الحنفي (مرجع سابق) بدائع الصنائع ٥/ ١٢٩

٤)- النووي ، شرف الدين (مرجع سابق)" المجموع ١٣/ ٤٤

٥)- النووي ، شرف الدين " روضة الطالبين" (مرجع سابق) ٣/ ٧٨

إنّ هذا التعريف الموجود عند الشافعية يحصر الاحتكار بعملية شراء السلعة وسحبها من الأسواق في وقت الغلاء لا الرخص، وهو قيد مهم جداً لم نجده في كلمات الكثير من الفقهاء، وقد تردد هذا التعريف في كلمات فقهاء الشافعية مع اختلافات طفيفة، كما يظهر من غير واحد منهم .([1])

حكم الاحتكار في شريعة الاسلام .

والاحتكار لا شك محرم ومذموم في شريعة الاسلام ومن أدلة تحريمه ما يلي :

الدليل الأول : من القرآن الكريم

١- قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنوا لا تَأْكُلُوا أَموالَكُم بينَكُم بالباطل إلا أَن تَكُونَ تجارةً عن تَراضٍ منكُمْ﴾ (النساء: ٢٩). فإنّ أكل المال عن طريق الاحتكار لا يصنّفه العقلاء إلا أكلاً للمال بالباطل، فيكون مشمولاً للآية الكريمة.

٢- قوله تعالى : ﴿كَي لا يكُونَ دولَةً بينَ الأَغْنياء منكُمْ ..﴾ (الحشر: ٧). ومن الواضح أنّ الاحتكار يجعل المال خاصاً في تداوله بين الأغنياء دون الفقراء، نظراً لما يستدعيه من ارتفاع الأسعار بما يعجز معه الفقير عن الشراء.

٣- قوله سبحانه : ﴿تَدْعو من أَدبر وتولّى * وجَمع فَأَوعى﴾ (المعارج: ١٧ . ١٨)، حيث هي ناهيةٌ عن جمع المال وكنزه وعدم إخراجه.

٤- قوله عز من قائل: ﴿ويل لّكُلّ هُمزَة لُمزَة * الَّذي جَمع مالا وعدَّده﴾ (الهمزة: ١ . ٢)، وحاله حال الآية السابقة.

٥- قوله تبارك اسمه: ﴿وأُحْضرت الأَنفس الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨).

---

١)- الشربيني ، الخطيب " (مرجع سابق) مغني المحتاج " ٢/ ٣٨

٦- قوله تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (القلم: ١٢).

٧- وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ٢٠).

٨- وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ٢٠ - ٢١).

٩- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤). فإنّ هذه الآيات القرآنية بمجموعها تدلّ دلالة واضحة على تحريم كل ثقافة حكر وشح وجمع للمال دون نظر إلى الفقراء والمحتاجين، ومن الواضح أنّ الاحتكار من أجلى مظاهر ما تحدّثت عنه هذه الآيات ونهت وذمت ، ومن هنا، يمكن اعتبار هذه النصوص القرآنية مؤشرات عامة للحكم في الاحتكار، وليست أدلّة حاسمة، ولعلّه لذلك لم نجد ذكراً لها وأمثالها في كلام الفقهاء المسلمين.([1])

---

١)- حب الله ، حيدر " دراسات في الفقه الاسلامي المعاصر "بحث : فقه الاحتكار في الشريعة الاسلامية ٣/ ٢٥

الدليل الثاني : من السنة النبوية

١- قال صلى الله عليه وسلم : " لا يحتكر إلا خاطئ "[١]

٢- عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من احتكر على المسلمين طعاماً ضربه الله بالجذام والإفلاس"([٢])

مرجعية حرمة الضرر في حظر الاحتكار:

الدليل الثالث (الدليل العقلي) : الاستناد إلى الحكم بحرمة الإضرار بالمسلمين؛ فإنّ الاحتكار يحتوي على مضرة عظيمة للفقراء والمحتاجين، وقد كتبت الدراسات الاقتصادية الكثير حول مضار الاحتكار على المجتمع من نوع دوره في التضخم وارتفاع الأسعار، ودوره في قلّة الإنتاج وانخفاض جودته وزوال المنافسة وكساد السلع، وتحدّث بعض عن دوره في البطالة، وكذلك اتساع الهوة الطبقية بين الفقراء والأغنياء، بل لا يبتعد الاحتكار بأشكاله الكبرى والدولية عن التأثير في اندلاع الحروب والفتن.([٣])

وقد تنوعت صوره ، وتعددت أساليبه ، فالاحتكار لا يكون في الأقوات فحسب ، وإنما يكون في كل ما يحتاج إليه الناس من مال وأعمال ومنافع ، ذلك أنه من المقرر فقهاً (أن الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة كانت أم خاصة) فمواقع الضرورة والحاجة الماسة مستثناة من قواعد الشرع وعموماته وإطلاقاته ، فالاحتكار المحرم شامل لكل ما تحتاج إليه الأمة من الأقوات والسلع والعقارات ، من الأراضي

---

١)- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج (مرجع سابق) صحيح مسلم كتاب البيوع باب من احتكر سلعة ٥ / ٥٦ رقم ١٦٠٥

٢)- ابن ماجه ، احمد " سنن ابن ماجه كتاب البيوع باب من احتكر سلعة ٢/ ٧٢٩ رقم ٢١٥٥ وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٤/٢): «وهذا إسناد جيد، متصل، ورواته ثقات ." وانظر : العسقلاني ، احمد بن حجر " فتح الباري " ٢١٦/٤

٣)- عبد السميع ، اسامة السيد " الاحتكار في ميزان الشريعة الاسلامية " ص ٧٩

والمساكن ، وكذلك العمال والخبرات العلمية والمنافع لتحقق مناطه ، وهو الضرر اللاحق بعلمه المسلمين من جراء احتباسه وإغلاء سعره

ومن الآثار السلبية المترتبة على الاحتكار ما يلي :

١- أن الاحتكار يؤدي إلى قتل روح المنافسة الشريفة بين الأفراد والدول والتي هي السبيل إلى إتقان العمل وتحسين مستوى الإنتاج.

٢- أن الاحتكار قد يدفع القائم به إلى تبديد جزء من الموارد والتخلص منها إما حرقاً أو رميا في البحر أو غير ذلك خوفاً من انخفاض الأسعار في السوق العالمية.

٣- أن الاحتكار يكون سببا في انتشار الحقد والكراهية بين الأفراد مما يساعد على تفكك المجتمع وانهيار العلاقات بين أفراده.

٣- أن الاحتكار يترتب عليه العديد من الأمراض الاقتصادية والاجتماعية، مثل البطالة والتضخم والكساد والرشوة والمحسوبية والنفاق والسرقة والغش.([1])

أما عن التطفيف في المكيال والميزان

الموازين الأخلاقية تفسر التطفيف حسب مفهومه المطلق، وهو كل نقص يحصل في التعامل، فيكون للتطفيف حسب هذا المفهوم أبعاد كثيرة ومتعددة، يمكن اكتشافها من خلال تعامل الأفراد وعلاقاتهم بعضهم مع البعض الآخر ويشمل ذلك :

١) النقص في العبادة: بمعنى العلاقة بين العبد وربه، وقد استخدم القرآن مفهوم التجارة لتوضيح هذه العلاقة: {هل أَدُلُّكُم علَى تجَارة تُنْجيكُم منْ عذَاب أَليم} (الصف: ١٠). فالإنسان يمكن أن يكون مطففاً في عبادته، حاله كحال التجارة، إذا نقص منها شيء.

---

١)- الدوري ، قحطان عبد الرحمن " الاحتكار وآثاره في الفقه الاسلامي " ، لبنان ط دار كتاب ناشرون ط١ ٢٠١١ م ص ٢٣

٢) التطفيف في العمل والمهن: الكسب، حسب المفهوم الجديد للكلمة، أخص من الحرفة، ويشتمل على الحِرَف التجارية وأمثالها. والكسب يشمل نقصان الكمية، ونقص المواصفات المطلوبةَ في كيفية السلعة والخدمات. أما الطب والتدريس والقضاء فهي حِرَفٌ لا تشتمل على الكسب، لكن يمكن أن يصدق عليها التطفيف ، التقصيرَ في العمل من أكثر الأشكال رواجاً بالنسبة للتطفيف في المِهَن. وبالخصوص الكسب، له ارتباط واسع وكبير بالخيانة والخدعة.

٣) التطفيف في العلاقات العائلية: الأُسرة تسودها علاقات دافئة وحميمة من خلال محبة واحترام بعضهم لبعض، ويمكن أن يتسلّل التطفيف إلى الأُسرة، وذلك عندما يشح الوالدان على أفراد عائلتهما بالحب والحنان، أو يتعاملان معهم بالشدّة، ويبخلان عليهم بالوقت المفيد للعائلة، فكل ذلك يمكن أن يكون من مصاديق التطفيف في العلاقات العائلية.

إذن نستخلص أن التطفيف لا يخص الأشياء القابلة للوزن أو الكيل فقط، بل له مفهوم موسع، بحيث يشمل كل خفاء في تعامل مع المؤسسة. وإنّ كل نوع من النقص يعتبر من مصاديق التطفيف، سواء كان كمياً أو كيفياً، في الإنتاج أو بيع المواد أو تقديم الخدمات .([1])

تحذير القرآن من التطفيف

هناك هدفان أساسيان للأنبياء حسب التعاليم القرآنية والروائية: التوحيد، وإقامة القسط والعدل.

وقد أشارت الروايات والآيات المرتبطة بالقسط إلى الآثار المخربة للتطفيف، حيث جاءت مرة بالتصريح، ومرة بالتلويح، محذّرةً الناس من العلاقات الاقتصادية المبتنية على التطفيف.

---

١)– فراملكي ، الشيخ علي مظهر ، بحث بعنوان :" فقه التطفيف من التفسير الاقتصادي الى النهج الاجتماعي " على موقع مركز البحوث المعاصرة ببيروت وانظر موقع : http://nosos.net/

وأوضح الآيات في هذا الحقل هي {ويل للْمُطَفِّفِينَ}، وسوف نعرض للآيات التي تخص التطفيف، وذلك حسب ترتيب السورَ القرآنَية.

أولاً: {أَوفُوا الْكَيل والْميزَانَ بالْقسْط لا نُكَلّفُ نَفْساً إلاَّ وسعها} (الأنعام: ١٥٢) .

(أوفوا) أصلها (وفى، يفي، وفَاء) أيَ: الأداءَ كاملاً من دون نقص. أما (الكيل) فهو الذي تقاس به السلع من حيث الحجم .

أداء الكيل أن تعطي المكيال حقّه في الامتلاء، ولا تنقص منه شيئاً، وجملة (أوفوا) متعلّقة (بالقسط).

ومقتضى وجوب الإيفاء بالقسط في هذه الآية هو إقامة القسط والعدل بخصوص الكيل والوزن في المجتمع، وإعطاء الأفراد حقوقهم كاملة شاملة من دون إجحاف.

وهذه الآية الشريفة تعبر عن أحد المحرمات الإلهية التي جاءت في ذيل الآية: {قُل تَعالَوا أَتْل ما حرَّم ربُّكُم علَيكُم} (الأنعام: ١٥١) بتعبير أنيق وجميل وقصير، وقد حذّرت الآية المطفّفين، كما أوصت بأداء حق الكيل والوزن مراعاةً للعدل والإنصاف.

وهنا يبرز توهم يقول: لا يمكننا أن نؤدّي حق الكيل بالتمام والكمال بهذه المكاييل العادية؛ لأنّ النقص والزيادة واردان فيها حتماً، والذي يرفع هذا التوهم عبارة {لا نُكَلّفُ نَفْساً إلاَّ وسعها}، لأنّ الله سبحانه يكلّف كل إنسان على قدر استطاعته .

ثانيًا: {ولا تَنْقصوا الْمكْيَالَ والْميزَانَ إِنّي أَرَاكُم بخَيْرٍ وإِنّي أَخافُ علَيكُم عذَاب يَوْمٍ مُحيط} (هود: ٨٤).

المكيال: اسم آلة أصلها (كيل) ، بمعنى: كيل الطعام، ولكن صاحب (أقرب الموارد) يقول: إنها، أي كلمة (المكيال)، جاءت في أكثر الموارد بهذا المعنى. فبناء على ذلك المكيال هو ذلك الشيء الذين يقاس به الطعام وغيره، وكل شيء صار مقياساً

للطعام يدعى مكيالاً. والميزان أصله (وزن) بمعنى آلة توزن بها الأشياء وتقاس. (وزَنَ الشيء) يعني أنه قاس ذلك الشيء وأخذ مقداره ([1]).

على الرغم من أنّ الميزان المطلق هو ميزان كل شيء لكن في هذه الآية يظهر أنّ المراد منه ذلك الميزان المتداول بين الناس، لكن لا يبعد أن يكون الميزان هو ميزان كل شيء بحسبه، فيكون المراد هو أعم من الميزان العادي المتداول؛ لأن المراد من الميزان في الآية التاليةَ ليس هو الميزان المتداول بين الناس: {لَقَدْ أَرسلْنَا رسلَنَا بالْبَيِّنَات وأَنْزلْنَا معهم الْكتَابَ والْميزَانَ ليَقُومَ النَّاس بالْقسْط} (الحديد: ٢٥) ، بل هوَ المِيزانَ الذي يزن العقائَد والأخلَاق والسلوك والأقوَالَ، لذلك صار لكل واحد مقياس خاص به، فللعقائد مقياس يميز الحق عن الباطل، وللأخلاق مقياس وميزانٌ يميز الفضيلة عن الرذيلة، وللسلوك ميزانٌ يميز الصدق عن الكذب، فكل واحد منها له ميزانٌ يناسبه.([2])

المطلب الخامس : الإسراف في جانب الأخلاق والسلوك . وتحته فروع :

الفرع الاول : اللوطية

بعث الله الرسل إلى الناس لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن دياجير المعاصي والأهواء إلى دروب الخير والطاعات ، ولكن بعض الناس سيطرت عليهم أهواؤهم وعشعشت المعاصي في قلوبهم وعقولهم فأسرفوا على أنفسهم متناسين بأن لهذا الكون رقيباً لا يغفل ولا ينام وأن مردهم إليه وأنهم سيقفون يوماً – طال الأجل أو قصر – للحساب بين يديه ومن هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم وسجل القرآن لنا مخازيهم :

---

١)—ابن منظور ، جمال الدين " لسان العرب " ١٢٢/٨ مادة كال .

٢)– المرجع السابق نفسه . هذا وقد سبق الحديث عن أثر التطفيف – باعتباره مظهرا من مظاهر هدم الاقتصاد – في الانهيار الحضاري في مبحث اثر الاسراف على الانهيار الحضاري .

أولاً : قوم لوط

وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم في معصية دنيئة وهي اللواط حيث بين الله قبح أخلاقهم من خلال قوله تعالى: " ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ الأعراف: ٨٠ - ٨١

ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أرض سدوم وما حولها من القرى مع إبراهيم يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم يقول عمرو بن دينار رحمه الله : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط لذلك خاطبهم ربهم سبحانه بقوله : "أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ " والذي زاد الأمر تقززاً وقبحاً أن هؤلاء القوم قد عدلوا عن النساء اللاتي خلقهن الله للاستمتاع بهن بالحلال إلى الرجال وهذا إسراف منهم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله .([1])

ويقول الطاهر بن عاشور : القوم الذين أرسل إليهم لوط سدوم من أرض كنعان وكانت على شاطئ السديم وهو بحر الملح المسمى بالبحر الميت كما جاء في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين ، حيث أحدث أهل هذه القرية فاحشة استمتاع الرجال بالرجال ، وقد وصفهم الله بالإسراف بطريقة الجملة الاسمية الدالة على الثبات ، أي أنتم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات حيث اشتهوا

---

١)- عنبر ، محمود هاشم " الاسراف في ضوء القران الكريم – دراسة موضوعية – " (مرجع سابق) ص ١٨

شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة وهذه نتيجة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء، ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافاً أنه يشتمل على مفاسد كثيرة : منها استعمال الشهوة المغروزة في غير ما غرزت عليه ، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه ، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع ولأنه يغير خصوصية الرجلة بالنسبة إلى المفعول به إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته ، ولأن فيها امتهاناً محضاً للمفعول به إذ يجعل آلة لقضاء الشهوة لغيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً ولأنه مفض إلى قطع النسل أو تقليله ، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له "(١).

ويربط بعض الباحثين بين الجاهلية الحديثة التي ترعى هذا التلوث الأخلاقي وجاهلية قوم لوط التي ابتدعت هذا التلوث فيقول : "والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف الذي تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية ، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا بهم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب، فهي مجرد شهوة شاذة ، لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية ، فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري قبل أن يكون فساداً للأخلاق ، ولا فرق في الحقيقة ، فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية بلا انحراف ولا فساد ، إن التكوين العضوي للأنثى كالتكوين النفسي هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في الالتقاء الذي لا يقصد به مجرد الشهوة ، إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله

---

١) – ابن عاشور ، محمد الطاهر " التحرير والتنوير " (مرجع سابق) ٢٢٩/٨ وانظر : عنبر، محمود هاشم "الاسراف في القران الكريم " (مرجع سابق) ص ١٨–١٩ .

ونعمة إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف فأما التكوين العضوي للذكر بالنسبة للذكر فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة بل إن شعور الاستقذار ليسبق فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة فقط فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً بغير مبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه، وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود فروجوا وأشاعوا بأن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات ولكن شهادة الواقع تخرق العيون إذ إن هذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع نسبة الاختلاط ولا يقتصر نتائج هذا الاختلاط على الشذوذ بين الرجال بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء حتى غدت الحياة الغربية حياة بهائمية " .

الفرع الثاني : الزنا

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات تفشي ظاهرة الزنا ،ومما لا شك فيه أن جريمة الزنا من أبشع وأفظع الجرائم شرعاً وقانوناً فهي محرمة شرعاً ومن الكبائر التي نهى الله عنها في القرآن والسنة وقد أجمعت المذاهب الفقهية على تحريم الزنا وذلك لما في الزنا من بشاعة وفساد تضر الفرد في دينه ودنياه وتنشر الفساد والانحلال في المجتمع فهي جريمة محرمة بكل المقاييس وقد أعد الله لمرتكبيها عقوبات دنيوية و أخروية ردعاً وزجراً لفاعلها وليتعظ من تحدثه نفسه أن يقدم عليها. كما أن في هذه الجريمة هدرا للكرامة الإنسانية، وتصديعا لبنيان المجتمع، وفيها أيضا تعريض النسل للخطر، حيث يكثر اللقطاء وأولاد البغاء، ولا يكون هناك من يتعهدهم ويربيهم وينشّئُهم النشأة الصالحة!!

ومن أهداف الشريعة الإسلامية الغراء، وأغراضها الأساسية، حفظُ الضروريات الخمس وهي العقل- والنسل- والنفس- والدين- والمال وسميت بالضروريات: أو الكليات الخمس لأن جميع الأديان والشرائع قررت حفظها، وشرعت ما يكفل

حمايتها لأنها ضرورية لحياة الإنسان. ولما كان النسل هو أحد هذه الضروريات لذلك شرع الإسلام من العقوبات الصارمة الزاجرة ما يقطع دابر هذه الجريمة ويحقق الأمن والاستقرار للمجتمع. ([1])

وقد حفظ الإسلام الأنساب فحرم الزنا ووسائله من النظر المحرم إلى النساء، وإلى العورات وما يثير الفتنة والكلام المحرم مع النساء والسماع المحرم إلى أغاني الحب والغرام ونحو ذلك لما في الزنا من انتشار الأمراض وانتهاك الأعراض واختلاط الأنساب فينسب الولد إلى غير أبيه ويرث من غير أقاربه فيحصل بذلك من الظلم والمفاسد ما الله به عليم قال الله تعالى: " ولا تَقْربوا الزّنى إنَّهُ كَانَ فَاحشَةً وساء سَبيلاً" [الإسراء: ٣٢] والنهي عن قربانه أبلغ من مجرد النهي عنه، أيَ لا تحوموا حوله ولا تعملوا الوسائل الموصلة إليه كالنظر المحرم والكلام المحرم، والسماع المحرم، ولحفظ الأنساب وجب جلد الزاني البكر مائة جلدة مع تغريبه عن بلده الذي واقع فيه الجريمة لمدة سنة قال تعالى: "الزَّانيَةُ والزَّاني فَاجْلدُوا كُلَّ واحد منْهُما مائَةَ جَلْدَة ولا تَأْخذْكُم بهما رأْفَةٌ في دين الله إنْ كُنْتم تؤْمنُونَ بالله والْيَوْمِ الآخر وَلْيشْهدْ عَذَابهما طَائفَةٌ منَ الْمُؤْمنينَ" [النور: ٢] أي لا ترحموهما في إقامة الحد الذي شرعه الله وليحضرَ الجلد جماعَةَ من الناس ليشتهر ولينزجر الناس ويرتدعوا عن الزنا، كما يجب رجم الزاني المحصن المتزوج بالحجارة حتى يموت بالآية المنسوخ لفظها الباقي حكمها وبالسنة الصحيحة. ([2])

بيان لمفاسد الزنا والخيانة على الفرد والمجتمع.

الزنا يجمع خلال الشر كلها من :-

---

١)- القماش ، عبد الرحمن " الحاوي في تفسير القرآن الكريم " ص ١٥٤٦٠ .

٢)- القماش ، عبد الرحمن " الحاوي في تفسير القرآن الكريم " ص ١٥٤٦٢ وما بعدها ، وانظر : عبد الخالق ، وليد سعيد " الزنا في التشريع الجنائي الاسلامي " ص ٣ وما بعدها . بتصرف .وانظر : مقال بعنوان " الزنا في التشريع الجنائي الاسلامي مقارنة بالقانون الوضعي المصري " على موقع : http://www.muslm.org/vb/showthread.php"

١ – قلة الدين ، وذهاب الورع ، وفساد المروءة ، وقلة الغيرة ، ووأد الفضيلة

٢. يقتل الحياء ويلبس وجه صاحبه رقعة من الصفاقة والوقاحة

٣. سواد الوجه وظلمته ، وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو للناظرين

٤. ظلمة القلب ، وطمس نوره وذهاب بصيرته

٥. الفقر اللازم لمرتكبيه .

٦. أنه يذهب حرمة فاعله ، ويسقطه من عين ربه وأعين عباده ،ويسلب صاحب اسم البر، والعفيف ، والعدل ، ويعطيه اسم الفاجر ، والفاسق ، والزاني ،والخائن

٧. الوحشة التي يضعها الله في قلب الزاني ، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه؛ فالعفيف على وجهه حلاوة ، وفي قلبه أنس ، ومن جالسه استأنس به ، والزاني بالعكس من ذلك تماماً ٨. أن الناس ينظرون إلى الزاني بعين الريبة والخيانة ،ولا يأمنه أحد على حرمته وأولاده.

٩. ومن أضراره الرائحة التي تفوح من الزاني ،يشمها كل ذي قلب سليم ، تفوح من فيه ، ومن جسده

١٠. ضيقة الصدر وحرجه ؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم ؛ فإن من طلب لذة العيش وطيبه بمعصية الله عاقبه الله بنقيض قصده ؛ فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خير قط .

١١. الزاني يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن

١٢. الزنا يجرئ على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين ، وكسب الحرام ،وظلم الخلق ، وإضاعة الأهل والعيال وربما قاد إلى سفك الدم الحرام ، وربما استعان عليه بالسحر والشرك وهو يدري أو لا يدري ؛ فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها ، ويتولد عنها أنواع أخرى من المعاصي بعدها فهي محفوفة بجند من المعاصي

قبلها وجند من المعاصي بعدها ، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة ، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة. (١)

الفرع الثالث : قذف المحصنات.

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات ظاهرة القذف عموما وقذف المحصنين والمحصنات خصوصا، علما بأن الإنسان يدخل الإسلام بكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكلمة الكفر والإصرار عليها تخرجه من ملة الإسلام، والإنسان يعبر عما في نفسه بالكلام، ومن أظهر بالكلام خلاف ما يخفي فهو المنافق، ومن تحدث بغير الحقيقة فهو الكاذب، والإنسان محاسب على ما يتكلم به، قال تعالى: (مَّا يلْفِظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ) [ق:١٨]. وقذف المحصنات ما حقيقته إلا كلمة، إذا لم يأتَ على إثباتَ مقالتهَ بالشهود اللازمة أقيم عليه الحد، ولا تقبل شهادته، وعد من الفاسقين إلا من تاب، قال تعالى: (والَّذين يرمونَ الْمُحْصَنَات ثُمَّ لَمْ يأْتُوا بأَرْبَعَة شُهَدَاء فَاجْلدُوهُمْ ثَمَانينَ جلْدَةً وَلَا تَقْبلُوا لَهُم شَهَادَةً أَبداً وأُولَئكَ هم الْفَاسقُونَ* إلَّا الَّذين تَابوَا من بَعْدَ ذَلكَ وأَصلَحوا فَإنَّ الله غَفُور رَحيمٌ) [النور:٤- ٥]

وقَال ابن تيمية في تفسيرها : " في قوله تعالى: {إنَّ الَّذين يرمونَ الْمُحْصَنَات الْغَافلَات الْمُؤْمنَات لُعنُوا في الدُّنْيا والْآخرَة ولَهُم عذَاب عَظيم} [النور: ٢٣]، فَي طردَه الكلام عَلى َما يَتعلق بهذه الآية وغَيرهَا فقالبعد استطَراد طويل ذكر فيه أن المراد بالمحصنات في الاية على ثلاثة أقوال : أولها المقصود أمهات المؤمنين خاصة ، وثانيها : المحصنات المؤمنات ، وثالثها : عامة نساء الامة المسلمات ثم قال ".. ، فرتب الحد ورد الشهادة والفسق على مجرد قذف المحصنات، فلابد أن يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات؛ وذلك والله أعلم لأن

---

١)- آل جار الله ، عبد الله جار الله " الجريمة الخلقية " ص ١٣ . وانظر : القماش ، عبد الرحمن " الحاوي في تفسير القرآن الكريم " ص ١٥٤٦٦ . وما بعدها .

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مشهود لهن بالإيمان؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهر الإيمان ، ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة: {والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم} [النور:١١]، فتخصيصه متولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم، وقال: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم} [النور:١٤]، فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف، وإنما يمس متولي كبره فقط، وقال هنا: {ولهم عذاب عظيم} [النور: ٢٣]، فعلم أن الذي رمي أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تقبل توبته " (١)

ومن هنا فقد أكدت الشريعة على عدم شيوع الفاحشة في المجتمع الإسلامي وعدم انتشار المفاسد فيه، تحجيبا لها كي يتم القضاء عليها وعدم الخوض في مثلها، لما لها من التأثير القوي في تفكك المجتمع والقدح في أعراض الناس وتشويه سمعتهم، ثم أنه من يشيع القذف والقدح في عرض الإنسان يكون مصداقا لقوله تعالى: " إنَّ الذين يُحبُّونَ أَنْ تَشيعَ الْفَاحشَةُ في الذين آمنوا لهم عذاب أليمٌ ف الدُّنْيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون " ، فنفس إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي تكونَ أرضية خصبة في انتشار الرذائل والذنوب والموبقات مما يؤدي إلى اعتياد الناس على الفواحش، والابتعاد عن شريعة الله التي أخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ومن رذائل الأخلاق إلى محاسنها.(٢)

ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من سوء الكلام وجعل حقيقة الإسلام في قلب صاحبه حين يسلم المسلمون من لسانه ويده وقدم اللسان لخطورته، وسهولته على المتجرئ به، عن أَبِي موسى رضي الله عنه قَالَ قَالُوا يا رسولَ الله أَيُّ

١)- الحراني ، احمد بن تيمية " الفتاوى الكبرى " ١٥/ ٢٥٦ وما بعدها . باختصار .

٢)- عبيد ،عبد الزهرة لفتة " قذف المحصنات واحكامها في الفقه الاسلامي " ص ٧ وما بعدها .

الإسْلاَم أَفْضَل؟ قَالَ: (من سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ من لسانه ويَده) ([1]) . وورد هذا المعني في أحاديث عن عبد الله بن عَمرو، وعَبد اللهَ بنَ مسعَود بَل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل من نفسه ضامنا الجنة لمن أقام أمور منها إمساك اللسان، عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجلَّيْه أَضمن لَه الْجَنَّة»([2]). واللسان بين اللحيين وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بيان لخطورة الكلمة حين قَالَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِملاَك ذَلِكَ كُلّه». فَقُلْت لَه بلَى يا نبي الله. فَأَخذَ بلسانه فَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فَقُلْت يا رسولَ الله وإِنَّا لَمؤاخذُونَ بِمَا نتَكَلَّم به فَقَالَ: (ثَكلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ وهل يكُبُّ النَّاس علَى وُجُوههمْ في النَّار – أَو قَالَ علَى مَناخرهم- إلاَّ حصَائدُ أَلْسنتهمْ" ([3]) ، والمؤمن يظن خَيرا فيما يسمعه عن أخيه المؤمن : قَالَ تعالى: (لَولا إِذْ سَمِعتموه ظَنَّ الْمؤمنونَ والْمؤمنات بِأَنفُسهمْ خيراً وقَالُوا هذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) [النور: ١٢]

في قوله تعالى: (ظَنَّ الْمؤْمنونَ والْمؤْمنَاتُ بِأَنفُسهمْ خيراً) أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليَق بهم فيجبَ عليهَم أنَ يكونوا كذلك، سواء أم المؤمنين التي نزلت بشأنها الآيات أو عموم المسلمين، ويروى أن حديثا دار بين أبي أيوب الأنصاري وامرأته حين دخل عليها، فقالت: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في

---

١)- البخاري ، محمد بن اسماعيل (مرجع سابق) صحيح البخاري في الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ١٨/١ رقم (١٠)

٢)- البخاري ، محمد بن اسماعيل (مرجع سابق) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب في حفظ اللسان ٣١٥/١ رقم ٦١٠٩

٣)- القاري ، علي بن سلطان " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح " كتاب الايمان رقم ٢٩ ، والترمذي ، احمد بن عيسى في الايمان باب حفظ اللسان برقم ٢٦١٦ وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي والألباني والأرناؤوط.

عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب، فقالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة خير منك" (١)

إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم من سماع السوء .

لقد بينت الآيات ما يجب على المؤمنين عمله عند سماع السوء أ- ما بيناه فيما سبق بحسن الظن فيما يسمعه عن إخوانه المؤمنين الدعاة، وهذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور.. خطوة الدليل الباطني الوجداني

ب- أن لا يكتفي بالظن الحسن في القلب بالنسبة لما يسمعه، بل يسارع إلى الإنكار اللساني (وقَالُوا هذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ)

جـ – الخطوة التالية طَلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي، قال تعالى: (لَولا جاءوا عَلَيْه بأَرْبَعَة شُهَداء فَإِذْ لَمْ يأْتُوا بالشُّهَداء فَأُوْلَئكَ عندَ الله هم الكَاذبُونَ) [النوَر: ١٣]

د- من الأدب الأخلاقي أن المرء لا يقول بلسانه إلا الذي يعلمه ويتحققه، وإلا فهو أحد رجلين: أفن الرأي، يقول الشيء قبل أن يتبين له الأمر فيوشك أن يقول الكذب، فيحسبه الناس كذاباً، وفي الحديث: حسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما يسمع، وإما رجل مموه مراء يقول ما يعتقد خلافه قال تعالى:(ومن النَّاس من يُعْجبُكَ قَولُه في الحَياة الدُّنْيا ويُشْهدُ الله علَى ما في قَلْبه وهو أَلَدُّ الخَصام) وقال: (كَبر مقْتاً عندَ الله أَن تَقولُوا ما لا تَفْعلُونَ))

هـ – ولا يكفي الظن الحسن والتصريح بنفي وإنكار مقالة السوء، بل على الداعي أن لا يسمح بتسرب شيء إلى نفسه مما يخالف الظن الحسن، وإذا حصل شيء من ذلك في نفسه فلا يجوز أن يتكلم بهذا، بل يردد بلسانه حتى يسمع نفسه وغيره قوله تعالى:(ولَولا إِذْ سَمعتموه قُلْتم مَّا يكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّم بهَذَا سبحانَكَ هذَا بهتَانٌ عَظيمٌ) [النور: ١٦ "

١)- والرواية في الدمشقي ، الحافظ اسماعيل بن كثير (مرجع سابق) تفسير بن كثير ٣٤٥/٣

و- أن يبعد الداعي عن نفسه أي ميل أو محبة أو رغبة في إشاعة الفاحشة، ونهش الأعراض، واتهام الغافلين المؤمنين، ويعرف من نفسه حصول شيء مما ذكرنا فيها، إذا شعر بلذة في سماع أقوال السوء، أو رغبة في ترديدها، أو في قوله سمعت كذا وكذا من مقالة السوء وليتذكر قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النور: ١٩ " (١)

١)- الطنطاوي ، محمد سيد " التفسير الوسيط " ٣٥٦/١٧ وما بعدها بتصرف .

الفرع الرابع : الفتنة وما يتبعها .

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات ظاهرة تفشي الفتن وما يتبعها من محن وقلاقل ، فنحن نعيش في زمن كثرت فيه الفتن فلا تكاد تطلع شمس يوم جديد إلا ويرى المسلم أنواعا من الفتن وقد عمت البلايا والمحن والنوازل والكروب والخطوب الجسام والأمة الإسلامية تعيش أحوالا عصيبة قد تكون أحرج أيام مرت بها عبر التاريخ ،ضعف ، وهوان ، وفرقة ، واختلاف، وتناحر، وتشاجر، وجاهليات ، وعصبيات ، وتسلط الأعداء عليها ،ومؤامرات تدبر تلو المؤامرات فالمصائب كثيرة والجراحات عميقة والمصاب جلل، ويندر وجود العاقل الحكيم الذي يتناول الأمور بالحكمة ويعالج الأمور بالعقل والرشد ويتأمل في نتائج التصرفات وأثارها السلبية على الفرد والمجتمع . فمن هنا كان لزاما معرفة منهج سلفنا الصالح والأئمة الأعلام وكيف كانوا يتعاملون مع الفتن قبل وأثناء وبعد وقوعها لان الفتن إذا لم يرع حالها ، ولم ينظر إلى نتائجها فان الحال سوف يكون حال سوء في المستقبل إلا إن يشاء الله ويتجرأ السفهاء فيها ويحتار العقلاء قال شيخ الإسلام . رحمه الله . (والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء عند دفع السفهاء ... وهذا شأن الفتن كما قال تعالى : {واتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً واعْلَمُواْ أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ }الأنفال٢٥ وإذا وقعَت الفتنةَ لم يسلم مَن التلوث بها إلا من عصمه اللهَ) منهَاجَ السنة (٣٤٣/٤) فالفتن من القضايا الخطيرة المزعجة ولخطورتها أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة منها ، إن الفتن حين تموج كموج البحر تكسر الثوابت وتخلط الأوراق ويغيب الحق ويختلط الحق بالباطل وتجلب الهزائم على الأمة دينيا ، وثقافيا ، وسياسيا ، وعسكريا، ثم تحصد الفتن أرواحا ولم تميز بين عالم وحكيم وعامة الناس ، بل ضحيتها النساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والعجائز، وربما خلقت للأمة الكثير من العاطلين والمعوقين فيصبحوا عالة على المجتمع الذي كان ينتظر نتاجهم وثمرة عملهم ، فالأمة في مواجهة الفتن تحتاج إلى رجال صادقين متسلحين بالعلم الشرعي لتبصير الأجيال وإرشادهم إلى مواقع الفتن ومراقدها ،

ويكون ذلك بالعلم والحلم والفقه والحكمة ، مستمدين ذلك من مصادر التلقي عند الأمة وهي . الكتاب والسنة . والإجماع والقياس الصحيح وتجارب السلف الصالح الذين اكتووا بنار الفتنة

قال الراغب الأصبهاني . رحمه الله . " أصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته " ([1])

وقال ابن منظور : " قال الأزهري وغيره : وجماع الفتن: الابتلاء والامتحان والاختبار ، واصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار ، لتميز ألردي من الجيد "([2])

أنواع الفتن :

قال ابن القيم . رحمه الله . : ((الفتنة نوعان : فتنة الشبهات : وهي أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات ، وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بأحدهما))([3]) ، والفتن أقسام باعتبار ذاتها ومألآتها فمنها فتنة الشهوات ، والشبهات ، وفتنة المؤمن ، وفتنة الكافر وفتنة المحيا وفتنة الممات وفتنة القبر ، وفتنة النار وفتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره وفتن تموج كموج البحر. ومرادنا هو النوع الأخير الذي يعصف بعوام الناس ويجتاح الخاص والعام ، ويقضى على الأخضر واليابس ويتتابع ، ويتراكب كموج البحر وينشأ عنه الهرج والمرج ويدع الحليم حيرانا .. واخطر الفتن هي فتنة الشبهات وهي التي عصفت بكثير من الفرق الضالة الموجودة في الساحة عبر العصور كالخوارج ، والقدرية ، والمرجئة ، والمعتزلة والجهمية ... وغيرها من الفرق وقد تؤدي بصاحبها

---

١)- الاصفهاني ، الراغب " المفردات " ص ٣٢٧ .

٢) – ابن منظور ، جمال الدين " لسان العرب " ٦/ ٢٣٤ مادة فتن

٣)- الجوزية ، ابن القيم " إغاثة اللهفان " ٢/١٦٠ .

إلى استحلال المحرمات المقطوع بحرمتها أو ترك الواجبات وقد تؤدي به إلى الكفر والزندقة عياذا بالله .([1])

وفتنة الشبهات : ناتجة عن ضعف البصيرة وقلة العلم والغرور والكبرياء والإعجاب بالنفس والرأي ، وعلاجها تصحيح القصد وعدم إتباع الهواء وقوة العلم ، وأما فتنة الشهوات : هي ناتجة عن ضعف الإيمان وضعف النفس وعدم التحلي بالصبر على اجتناب معاصي الله عز وجل وعلاجها الصبر على اجتناب المحرمات وعدم الاستجابة للنفس الأمارة بالسوء واللجوء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى .

وفي الحديث عن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : " بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم . يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا " ([2]).

أهم القواعد والضوابط عند أهل السنة والجماعة في مواجهة الفتن

إن مجرد بقاء الوحي كتاباً وسنة . بلا تحريف ولا تبديل لرسمه . نعمة من الله عز وجل علينا ، فالعمل بالوحي هو الذي بني الجيل الأول والقرون المفضلة ولم يكن مجرد الانتساب كافياً . بل كان وراء ذلك فهم متوازن متكامل للعقيدة على منهج أهل السنة والجماعة ، وتطبيق حي واقعي لأحكام الإسلام وكمنهج تربوي يحفظ هذا المجتمع على الصورة الصحيحة للإسلام فكراً وعملاً ومن ثم كان ذلك الجيل هو الحجة علينا وعلى البشرية جمعاء إلى يوم القيامة وسبيلهم هو السبيل الوحيد لإقامة الحق والخير قي هذه الأمة . بإذن الله تعالى . ومخالفتهم فيما اجمعوا عليه زيغ وضلال قال تعالى : {ومن يُشَاقِقِ الرَّسولَ من بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُ الْهُدَى ويَتَّبِعْ غَيرَ سَبِيلِ

---

١) بانجوة ، عبد الله " منهج اهل السنة والجماعة في مواجهة الفتن وأسبابها وأثارها وطرق معالجتها " بحث على الانترنت في موقع منتديات دار الحديث بمأرب اليمن :
http://mareb.org/showthread.php

٢)- صحيح مسلم كتاب الايمان باب الحث على المبادرة بالاعمال قبل تظاهر الفتن ، الكتب الستة ٥٥٠/١ رقم ١١٨

الْمُؤْمنينَ نُوَلّه ما تَوَلَّى وَنُصْله جهنَّم وساءتْ مَصيراً } النساء١١٥ وقال الإمام مالك رحمه اَللّه (لاَ يصلح آخر هَذَه الأمة إلا بما صلحَ به أولها).(١)

ويمكننا اجمال هذه القواعد والضوابط(٢) فيما يلي :

أولاً : الاعتصام بالله . ويكون ذلك بالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه .

ثانياً : الالتفاف حول العلماء :

ثالثاً . لزوم الجماعة :

رابعا : التسلح بالعلم الشرعي :

خامسا : الحذر من الفتن والبعد عن مواطنها :

سادسا : التأني والرفق والحلم وعدم العجلة :

سابعا : التفاؤل والثقة بنصر الله .

ثامنا : الصبر

تاسعاً: النظر في العواقب :

عاشراً : الحذر من الإشاعات في زمن الفتن :

الحادي عشر : عدم تطبيق ما جاء في الأحاديث في الفتن على الواقع :

الثاني عشر : ضبط مصادر التلقي عندا لأمة :

الثالث عشر : لزوم العدل والإنصاف :

الرابع عشر : الانشغال بالعمل الصالح :

الخامس عشر : نبذ التعصب بأنواعه :

السادس عشر : التعوذ من الفتن والإلحاح على الله في الدعاء والاستغفار :

السابع عشر : تعظيم حرمات المسلمين :

---

١)- أنس ، مالك امام دار الهجرة " مقدمة الموطأ" ص ٤ .

٢)- انظر هذه الضوابط تفصيلا في : بانجوة ، عبد الله " منهج اهل السنة والجماعة في مواجهة الفتن وأسبابها وأثارها وطرق معالجتها " بحث على الانترنت في موقع منتديات دار الحديث بمأرب اليمن : http://mareb.org/showthread.php

الثامن عشر : كثرة الاستشارة :

التاسع عشر : التوبة النصوح :

المطلب السادس : الإسراف في جانب الحروب والقتل وتحته فروع :

الفرع الاول : الاسراف في القتل

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات ظاهرة الاسراف في القتل وقتل النفس البريئة كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها ، وكل نفس حرام أن تمس بقتل إلا بالحق وهذا الحق ليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله قال : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة"(١) ، فهذه هي الأسباب الثلاثة المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب فقد جعل الله لوليه سلطاناً على القاتل من غير إسراف في القتل كما قال تعالى : " ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الإسراء: ٣٣ والمراد بالحق الذي استثناه هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة في الأصل إلا بسبب ملتبس بالحق كالقصاص من القاتل والزاني المحصن والمرتد عن دينه والمراد بالسلطان الذي جعله الله لولي المقتول هو التسلط على القاتل إن شاء قتل وإن شاء عفا وإن شاء أخذ الدية ومعنى الإسراف في القتل المنهي عنه في الآية عدم مجاوزة الحد بمجاوزة ما أباحه الله له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة أو يمثل بالقاتل أو يعذبه أو يقتل القاتل بعد أخذ الدية والعفو ، ثم علل النهي عن السرف فقال :" فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا " أي مؤيداً معانا أي الولي فإن الله سبحانه نصره بإثبات

---

١) – صحيح مسلم (مرجع سابق) كتاب القصاص باب ما يحل به دم المسلم ١٣٠٢/٣ رقم ١٦٧٦

القصاص له بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ، ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول والمعنى : إن الله نصره بوليه وعلى كلا الوجهين فإن الإسراف في القتل بعد هذه النصرة تجاوز للحد يحرمه الله سبحانه في علاه . . وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ في الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ، ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ،والولي مسلط على دمه بلا مثلة فالله يكره المثلة والرسول قد نهى عنها ، وقوله : "إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا يقضي له الله ، ويؤيده الشرع وينصره الحاكم فليكن عادلاً في قصاصه . وبهذا يتبين لنا أن الإسراف في القتل هي عادة الجاهلية نهى عنها الإسلام ، وأن السلطان الذي جعله الله تعالى لولي المقتول لا بد أن يستغل استغلالاً حسناً ويوظف توظيفاً سليماً بعيداً عن الإسراف في القتل الذي قد يتجاوز به الولي الحدود المتاحة له والمساحة التي سمح له أن يتحرك عليها.([1])

الفرع الثاني : الحرابة والسرقة

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات ظاهرة الحرابة والسرقة ، ولا شك أن جريمة الحرابة من الجرائم الخطيرة، فهي انتهاك لحرمات المجتمع كلها ومن هنا كان التغليظ في حدها فوق كل ما عداها، وإذا أَمن الفرد على دينه وعلى نفسه، وسلم له عقله وعرضه، وحفظ له ماله، فقد جمعتَ له أطراف الأمن كلها. بالإضافة إلى الحدود، توجد العقوبات عند فعل كل محرم ولم يرد به نص محدد بعقوبة دنيوية، كما تشمل الجرائم التي قدرت عقوباتها بنص لكن لم تتوافر الشروط في هذه العقوبات وأوجدت شبهة دارئة للحد والحدود عقوبات مقدرة بمعرفة الشارع جنساً وقدراً خالصاً لله تعالى وهي عقوبات مغلظة حتى تكون حامية للضروريات

١)- عنبر ، محمود هاشم الاسراف في القران الكريم – دراسة موضوعية " ص ١٥ .

ومقاصد الشارع من دين ونفس وعقل ونسل وعرض ومال ، هذا وان من الجرائم التي تقض مضاجع الآمنين وتكدر عليهم صفوهم جريمة الحرابة، وهذه الجريمة من أبشع الجرائم وأكثرها ضرراً على المجتمع ففيها الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال، وقد جاء الإسلام ضمن تشريعاته الجنائية بالدواء الشافي لهذا الداء لصيانة المجتمع وأمنه، ففي غياب تطبيق الحدود والتعازير الإسلامية، تتفاقم الجرائم ويصعب السيطرة عليها و وتهدد النفس والأموال والثمرات ويحدث الفساد الشامل للمجتمع.([1])

والحرابة في اللغة: مصدر حارب يحارب محاربة، مأخوذة من الحرب، والحرب مؤنث نقيض السلم، والسِّلم والسَّلم يذهب بهما الى المسالمة والحرب بالتحريك أن يسلب الرجل ماله"([2]) ،وفي المصباح المنير "حرب حرباً من باب تعب أخذ جميع ماله، والحرب المقاتلة والمنازلة".([3])

و الحرابة في الاصطلاح الشرعي: عرفها الحنفية بأنها الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة على وجه يمتنع المارة من المرور وينقطع الطريق سواء كان من جماعة أو من واحد له قوة القطع بسلاح أو غيره، مباشرة من الكل أو التسبب من البعض بالإعانة والأخذ" ([4])

وعرفها المالكية: "بالخروج لإخافة سبيل بأخذ مال محترم بمكابرة قتال أو خوفه أو ذهاب عقل، أو قتل خفية، أو لمجرد قطع الطريق، لا لإمرة ولا لنائرة ولا عداوة" ([5]) واستدلوا على تحريم الحرابة بقوله " إِنَّمَا جزاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّه ورسولَه ويسعونَ فِي الأَرضِ فَساداً أَن يقَتَّلُوا أَو يصَلَّبوا أَو تقَطَّع أَيْدِيهِمْ وأَرجلُهم مّنْ خلاف أَو ينفوا من الأَرضِ ذَلِكَ لهم خِزْيٌ فِي الدُّنْيا ولهم فِي الآخِرَةِ عَذَاب عَظِيمَ" المائدة :٣٣ . ففَي

---

١)- اللحيدان ، حمد بن علي " الصور المعاصرة لجريمة الحرابة " دراسة تطبيقية مقارنة – ص ١٣ .

٢)- ابن منظور ، محمد مكرم جمال الدين " لسان العرب " ٣٠٤/٤ مادة حرب

٣)- الفيومي ، المقرئ " المصباح المنير " ١٢٤ مادة حرب ..

٤)- الكاساني ، علاء الدين " بدائع الصنائع ٩/٧

٥)- الطرابلسي المغربي ، محمد بن محمد " مواهب الجليل لشرح مختصر خليل " ٤٣٦/٨

الحرابة لا يقصد المحارب شخصاً بعينه لينتقم منه، بل قصده نشر الرعب في قلوب العامة .وصور الحرابة قديما وحديثا كثيرة منها :

١ –قطع الطريق على المسافرين، بأن يقف المحاربون في الصحراء ويعترضوا سبيل المسافرين.

٢ – زرع المتفجرات في المباني أو الطائرات أو السيارات أو غيرها من الأماكن العامة بقصد قتل

الأنفس المعصومة، وهذا من أشد أنواع الحرابة لأنه لا يمكن التحرز منه، وضرره عام على الأمة.

٣ – اختطاف الرهائن، والتهديد بقتلهم، سواء نفذ المحارب ما هدد به أم لم ينفذ.

٤ – جريمة الاغتصاب لأنها متى ما ظهرت دب الرعب في نفوس الناس

٥ – ترويج المخدرات وجلبها إلى داخل بلاد المسلمين

٦ – تزييف عملة المسلمين، لأنه جريمة عامة يصعب التحرز منها، وإذا انتشرت العملة المزيفة

دب الفساد في الأسواق، ولم يأمن الناس في التعامل بعملتهم.

وألحق فقهاء المالكية بالحرابة "قتل الغيلة"، وهو القتل على حين غرة من المجني عليه إذ لا يمكن التحرز منه لأن الجاني يخادع المجني عليه فيقتله من حيث هو آمن.([1])

– الحكمة من حد الحرابة:

الحرابة تسمى السرقة الكبرى لعظم آثارها في إحداث الفوضى، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وإحلال الخوف بدل الأمن، ولارتباطها بالمجاهرة والمغالبة وحمل السلاح، فلما كانت كذلك شدد الإسلام في عقوبتها وجازى كل محارب على قدر جرمه وجنايته، وما تقدم من كلام حول حكمة تحريم السرقة وإيجاب قطع اليد فيها يسري على حكمة حد الحرابة، (فلولا الزواجر الشرعية من القطع والصلب ونحوهما

---

١) اللحيدان ، حمد بن علي " الصور المعاصرة لجريمة الحرابة " دراسة تطبيقية مقارنة ص ٣٢ وما بعدها .

لبادر الناس إلى أخذ الأموال مكابرة على وجه المجاهرة، أو خفية على وجه الاستسرار، وفيه من الفساد مالا يخفى، فناسب شروع هذه الزواجر في حق المستأسر والمكابر، حسماً لباب الفساد وإصلاحاً لأحوال العباد.([1])

الفرع الثالث : نقض العهود ، والخيانة ، والاعتداء بالحرب.

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات ظاهرة نقض العهود والخيانة والاعتداء على الآخرين وذلك كله من الخصال المتأصلة في اليهود والمنافقين يقول تعالى : " ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون" (البقرة/٩٩، ١٠٠) يقول ابن عاشور في تفسيرها : " سياق هذه الآية في اليهود عليهم لعنة الله، فهي تقرر صفات أصيلة فيهم سبقتها صفات وتلتها صفات في السورة، ولكن الآية هنا تبرز هذه الخصلة الثابتة في اليهود، ألا وهي: نقض العهود، والخروج عن مقتضى العقود، وما هذا النقض والخروج إلا لأنهم فاسقون، وقد شاع إطلاق الفاسق على الخارج عن طريق الخير، وشاع في القرآن وصف اليهود به، والمعنى: ما يكفر بهذه الآيات إلا من كان الفسق شأنه ودأبه، لأن ذلك يهيئه للكفر بمثل هذه الآيات، فالمراد بالفاسقين: المتجاوزون الحد في الكفر، المتمردون فيه . ويلاحظ هنا أن الإخبار عن كفر اليهود بالآيات المنزلة قد جاء على صيغة المضارعة الدالة على التجدد (يكفر بها) وكذلك جاء التوصيف باسم الفاعل المعرف باللام (الفاسقون) الدال على استقرار الصفة. وقد جاء تقرير هذا المعنى بالقسم، فقوله – تعالى –: ((ولقد أنزلنا إليك آيات بينات...)) اللام هنا هي الموطئة لقسم حذف لدلالة السياق عليه، وجوابه قوله – تعالى –: ((وما يكفر بها إلا الفاسقون)) ثم بدأت الآية التالية بهذا السؤال: ((أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم)) وهذا استفهام للتوبيخ معطوف على جملة القسم، والنبذ: إلقاء الشيء من اليد، وهو هنا استعارة لنقض العهد، شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شيء كان ممسوكاً باليد. والمراد بالعهد هنا، ما

---

١)– الكاساني ، علاء الدين " بدائع الصنائع " ٩٣/٧

أخذ على بني إسرائيل أو ما أخذوه على أنفسهم، ومن ذلك عهد الله إليهم ب الوفاء لشرعه ودينه في قوله – تعالى –: ((وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم)) وقد كثر أخذ العهود عليهم في تكرار نقضهم العهود المتتالية مع الأنبياء المتكاثرين فيهم، فهم قد أدمنوا مخالفة عهد الله في كتابه، ومخالفة عهود أنبيائه المرسلين فيهم ثم أضافوا إلى ذلك مخالفتهم العهد بأن يؤمنوا بالرسول المبتعث إليهم وإلى الناس كافةº محمد – صلى الله عليه وسلم – ، ذلك النبي العظيم الذي أخذ الله العهد على الأنبياء قبله أن يتبعوه إذا ما خرج، والمراد أتباع هؤلاء الأنبياء، فهم الباقون بعد المرسلين فيهم. قال – تعالى –: ((وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)) [آل عمران/٨١]. ولكن من أتباع هؤلاء الأنبياء – وفي مقدمتهم اليهود – من نقضوا هذا الميثاق إلا قليلاً منهم. وقد قال (ابن صوريا) أحد كبراء اليهود للنبي – صلى الله عليه وسلم – : يا محمد: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليكم من آية بينة... فأنزل الله في ذلك: ((ولقد أنزلنا إليك آيات بينات...)) (١)

ودائما ما ينظر اليهود إلى العهود والمواثيق التي يوقعونها مع غيرهم إنها توقع للضرورة ولغرض مرحلي ولمقتضيات مصلحة آنية، فإذا استنفذ الغرض المرحلي، نقض اليهود الميثاق من غير استشعار بأي اعتبار خلقي أو التزام أدبي، فاللجوء إلى العهود والمواثيق ما هو إلا حالة اضطرارية إن لم يستطع اليهود تجاوزها بالحيلة والخداع والتزوير، أو خشوا البطش بهم أو القضاء على مصالحهم المادية.

ولكن عندما تتوافر الظروف المناسبة، وتزول الحالة الطارئة التي اقتضت التوقيع على الميثاق، فلا بد من إزالة هذا القيد الذي هو يقيد تصرفاتهم أو يحد من حركتهم للوصول إلى هدفهم الذي يسعون إليه.

---

١) – ابن عاشور ، محمد الطاهر (مرجع سابق) التحرير والتنوير ٦٢٤/١

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الطبيعة الماكرة في اليهود في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٦ – ٥٨]. إنَ العلاجَ النَاجع لمثل هؤلاءً القوم الذين اعتادوا نَقْض العهود المرة تلو المرة ينبذ إليهم عهدهم وأن لا يدخل معهم في ميثاق، وإنما تعد لهم القوة التي ترهبهم فهؤلاء لا يستقيمون على شرعة إلا إذا كانت القوة تهددهم، فلا ينبغي أن يكون العهد ملتزماً به من جانب واحد فيصبح له قيداً يثقل كاهله بينما الطرف الآخر لا يتقيد به وينتهز الفرص. ولكن الفرق بين المؤمنين وغيرهم، أن المؤمن يعلم عدوه بنبذ العهد جهاراً لقاء عدم التزام العدو به فيكون في حل منه، أما العدو فيخاتل وينقضه سراً من غير أن يجرؤ على البوح بمقصده.([1]) .

والوفاء بالعهد خلق يقتضيه الإنصاف والصدق، وتوجبه المروءة وكرم النفس، وتحتمه الرجولة والنبل، ما أصغر وما أذل وما أخس النفس التي تتخذ عهدها وسيلة إلى التغرير بمن تعاهده، وتجعل يمينها سبيلاً إلى أن تفاجئه وهو آمن مطمئن.

والغادر كاذب حانث خادع، قد جعل كلامه وعهده حبالة لمآربه، حبالة واهية ذليلة كحبالة العنكبوت، يصيد بها الذباب، ودب من وراء الأمن إلى خصمه كما تدب الثعالب والذئاب، أين هذا من الإنسانية في أخلاقها العالية، والرجولة في سجاياها الحرة؟ وأين هذا من أخلاق القرآن كتاب الإنسانية الكاملة. والقرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعهد، قال تعالى : "﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ النحل: ٩١ ويؤكد الأمر به، ويعظم شأنه، ويكبر الموفين ، ويعدهم النعيم المقيم في الجنان، ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ

---

١) – مسلم ، مصطفى " معالم قرآنية في الصراع مع اليهود " ص ١٢٣ وانظر موقع :
/http://www.alukah.net

أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد: ٢٠ - ٢٤ وينهى عن الغدر، ويشتد في النهي عنه، ويقبحه، ويلعن الغادرين. إن من يتدبر آيات القرآن يجد العهد فيما ضربين: العهد العام، والعهد الخاص، فأما العهد العام فهو أداء الواجب الذي يقتضيه عمل الإنسان، فمن تولى عملاً فقد عاهد أن يفي به على الوجه الأكمل، فإذا لم يفعل فقد خالف العهد، ومن آمن بدين فقد عاهد أن يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه، فإن لم يفعل فقد نقض العهد، ومن دخل في جماعة فقد عاهدها على أن ينفعها ولا يضرها، فإن ضرها أو قصر في نفعها فقد غدر، ومن تصدى للدفاع عن أرض أو جماعة أو عقيدة فقد عاهد ألا يألو جهداً في الدفاع، فإن نكص فقد خان، ومن أوتي علما حقًّا فكأنه عاهد أن يبينه للناس ليهتدوا به، فإن كتمه فقد خان بعهده، ..وهكذا.([1])

١)- عزام ، عبد الوهاب " أخلاق القرآن " ص ٨ وما بعدها . وانظر : موقع : http://www.al-eman.com/

المطلب السابع : الإسراف في جانب السياسة والحكم . وتحته فروع :

الفرع الاول : اهمال الشورى

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات قضية الاستبداد بالرأي وإهمال الشورى ؛ بينما المبدأ العام الذي أقره القرآن ونادت به السنة هو مبدأ الشورى في شئون المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨) ، ويرى جمهور الفقهاء أنه ما دامت الشورى واجبة في شئون المسلمين فهي أوجب في اختيار الحاكم[١].

ومن جهة مسئولياته ففي الإسلام مقام الحكم والخلافة مقام مساءلة لأنها ليست تشريفاً بقدر ما هي عناء، وليست مغنماً بقدر ما هي مغرم، إلا إذا أدى حقها قدر الطاقة[٢]. ولا أدل على ذلك من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ حين سأل الولاية فأجاب النبي ﷺ : "يا أبا ذر إني أراك ضعيف، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم" وفي رواية "إنك ضعيف، وإنها يوم القيامة خذي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"[٣].

ومسئولية الحاكم تقع في ثلاث دوائر: الأولى: مسئوليته أمام الله تعالى كراع للمسلمين ، قالﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته" الحديث[٤].

الثانية : المسئولية أمام الضمير وهي مسئولية الوازع الذاتي والتي قصدها الخليفة عمر بن الخطاب بقوله : "اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك، و ارزقني الخشوع فيما يرضيك والمحاسبة لنفسي"[٥].

---

(١) العيلي ، عبد الحكيم "الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام " ص ٢١٨ .

(٢) يالجن ،مقداد " الاتجاه الأخلاقي في الإسلام "ص ٢٣٧ .

(٣) صحيح مسلم (مرجع سابق) كتاب الإمارة، باب : كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ١٨٢٦ .

(٤) صحيح مسلم(مرجع سابق) ، كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل والحث على الرفق بالرعية، رقم ١٨٢٩ .

(٥) زكي ، احمد " جمهرة خطب العرب ٢١٤/١ .

الثالثة : المسئولية أمام الأمة عن ممارسة السلطة التي بموجبها يحق لها متابعة أعماله والرقابة عليها[١].

والحاكم مسئول عن توفير الأمن والطمأنينة لشعبه ووطنه وليحذر من إفساد سيرة الحكم ويكون ذلك بإخراجها عن طاعة الله ورسوله وتعطيل مصالح المحكومين، وتفضيل ما تمليه النفس من مصالح أو أطماع. أو يتبع سياسة العنف مطلقاً في الرعية دون الرفق بهم ، قال ﷺ : "إن شرار الناس الرعاء الحطمة"[٢]، وهو العنيف في رعيته لا يرفق بهم في سوقها ومرعاها بل يحطمها في ذلك"[٣]. وينبغي أن يتجنب الأخذ بالريبة وسوء الظن لأن الإمام إذا ابتغى الريبة في الرعية أفسدهم. قال العلماء ، أي إذا اتهمهم وجاهرهم بسوء الظن فيهم أداهم ذلك إلى ارتكاب ما ظن معهم فأفسدهم[٤]"، وفي الحديث قالﷺ : "إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم" [٥].

كما لا يجوز أن يسوس الرعية بالخصال المذمومة شرعاً كالبخل والكذب، والجبن والغش وهذا ما تنزه عنه النبي ﷺ فعن أنس ، قال : "كان ﷺ : "أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس" [٦]. وقالﷺ : "لا يسترعي الله عبداً رعية ثم يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه الجنة" [٧].

---

(١) دبوس ، صلاح الدين "الخليفة توليته، وعزله" ص ٤٥.

(٢) صحيح مسلم(مرجع سابق) ، كتاب الإمارة، باب : النهي عن إدخال المشقة على الرعية، رقم ١٨٣٠ .

(٣) الماوردي ،أبو الحسن " الأحكام السلطانية " ص ١٧ت٢٠ .

(٤) ابن الاثير " النهاية في غريب الحديث" ٨٨/٤ .

(٥) صحيح مسلم (مرجع سابق) كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، رقم ١٠٦٤ .

(٦) صحيح البخاري(مرجع سابق) كتاب الأدب ، باب حسن الخلق وما يكره من البخل رقم ٦٠٣٣ ، وفتح الباري ٢٣٨/١٢.

(٧) صحيح مسلم (مرجع سابق) كتاب الإمارة ، باب الحث على الرفق بالرعية ، رقم ١٨٢٩ .

وأيضاً لا يجوز له أن يحتجب عن المسلمين بما يمنع تسيير مصالحهم. وثمة فرق بين أن يحتاط الحاكم لنفسه ويؤمن حياته وبين أن يجعل بينه وبينهم سداً فلا يصل إليها ولا تصل إليه فالحيطة، وتأمين مركز القيادة واجب [١].

وأخيراً .. فإن من أهم واجبات الحاكم التزامه بمبدأ الشورى في سياسته للرعية داخلياً وخارجياً.

ولابد من توافر الثقة بين الحاكم وشعبه لتؤتي الشورى ثمارها المرجوة . قال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ، ولا أدل على ذلك مما فعلته بلقيس ملكة سبأ حيث قال تعالى حكاية عنها : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾(النمل: ٣٢) وفقدان هذه الثقة لاشك أنه يخل بأمن واستقرار الوطن.

وجدير بالذكر هنا بيان وجه الخلاف بين الشورى التي هي نظام الحكم في الإسلام وبين الديمقراطية التي هي نظام الحكم في أوروبا والتي قامت على أنقاض النظام الإقطاعي هناك .

فالنظام الديمقراطي العلماني المعاصر يستهدف مصلحة الشعب ممثلاً بأكثريته في إطلاق الحرية لأفراد المجتمع جميعاً في جميع شئون الحياة مع التأكيد بأنها قاعدة مبنية على الخيال المحض بعيدة عن ملامسة الواقع .

أما النظام الإسلامي فإنه يستهدف حماية جوهر الدين بحيث يكون صوت الشعب إعمالاً وتنفيذاً لحكم الله تعالى وفي حالة الخروج عنه يضحي بصوت الشعب في سبيل الإبقاء على حكم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [٢].

---

(١) منجود ، محمود" الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام "، مرجع سابق، ص ١٥٦ وما بعدها .

(٢) السعد ، وليد " الإسلام وقضايا العصر "الديمقراطية" ص ١٧٥

الفرع الثاني :الحكم بغير ما انزل الله

لا شك أنه من صور الفساد العام والإسراف المطلق في المجتمعات إهمال التطبيق لشرع الله تعالى والتحاكم إليه ؛ بل إن تحكيم شرع الله في كل شؤون الحياة أمر ضروري لصلاح هذه الحياة واستقرارها، وقد دل على هذه الضرورة العقل والشرع معاً؛ أما العقل فهو قاض بأن هذا الخالق العظيم الذي أتقن كل شيء صنعه، أعلم بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم، وقاض كذلك بأن هذا الخالق العظيم الذي دل إحسانه إلى خلقه بالنعم على رحمته ورأفته بهم، لا يمكن أن يكون في تشريعه إلا ما هو كفيل بتحقيق سعادة الدارين لهم.

وأما الشرع فقد دل على أن تحكيم شرع غيره سبحانه وتعالى يعني اتخاذ هذا الغير إلهاً مع الله أو من دونه، قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى: ٢١]، وبهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحبارهم ورهبانهم أَربابا من دُون اللَّه} [التوبة: ٣١]، قال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه" (١) ، وإذا كان اتخاذ آلهة مع الله يفسد على الناس آخرتهم فإنه يفسد عليهم دنياهم كذلك، قال تعالى: {لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]، فدل هذا على أن اتخاذ شرع غير شرع الله سببَ عظيم من أسباب الفساد واختلال الأمور.(٢).

ومعلوم أن الشريعة جاءت لتحافظ على حياة الناس وأمنهم، لكن بعض النفوس الضعيفة قد لا يثنيها عن غيها ويردعها عن طغيانها إلا العقاب العاجل لتذوق مرارة الألم فيمنعها من المعاودة، ويحمل غيرها على الامتثال والطاعة . قال تعالى :

---

١)- الترمذي ، احمد بن عيسى " سنن الترمذي كتاب رقم ٣٠٩٥ وحسنه الالباني . في سنن الجامع .

٢)- العمر ، ناصر " مقال بعنوان : تحكيم شرع الله ضرورة عقلية وشرعية " على موقع :

http://www.almoslim.net/

﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ (المائدة: ٤٨) ، وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ (المائدة: ٥٠) لقد تكفل الله عز وجل لمن تبع شرعه المنزل على رسله بالهداية وسعادة الدارين، قال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هدى فَمَنِ اتَّبع هداي فَلَا يضلُّ وَلَا يشْقَى} [طه: ١٢٣]، قال ابنَ عاشور رحمَه الله: (معناه: أنه إذا اتبع الهدىَ الوارد من الله على لسان رسله سلم من أن يعتريه شيء من ضلال ... أي فلا يعتريه ضلال في الدنيا، بخلاف منَ اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله فإنه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى. وهذا حال متبعي الشرائع غير الإلهية وهي الشرائع الوضعية فإن واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلب الحق لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غفلات، أو تعارض أدلة، أو انفعال بعادات مستقرة، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أن من المصلحة طلب مرضاتهم ... والشقاء المنفي في قوله {ولا يشقى} هو شقاء الآخرة لأنه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة)(١)، وقال تعالى: {ومن أَعرض عن ذكْري فَإِنَّ لَه معيشَةً ضنْكًا} [طه: ١٢٤]، أي معيشة ضيق وشقاء، وإن كان صاحبها من أهلَ المال والنعيم المادي، قال ابن كثير رحمه الله: (أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة)(٢)

١)- ابن عاشور ، محمد الطاهر (مرجع سابق) التحرير والتنوير " ١١١/٩

٢) – الدمشقي ، اسماعيل ابن كثير (مرجع سابق) تفسير ابن كثير ٣٢٢/٥

الفرع الثالث : الاستبداد والطغيان والبطش

الاستبداد هو قانون السيد المطلق، الذي يحكم بلداً ويمارس فيه السلطة دون مشاركة من أحد، أي يستبد بالسلطة ويستأثر بها لنفسه .

وأما الطُغيان فهو يعني "حكومة بلا قانون" أي حكومة الظلم والتعسُّف وأهواء الحكام، وهي التي لا تُطبق مبدأ الشرعية . وفي حين أن الطاغية لا يمتلك أي شرعية للحكم، سوى سطوة القوة التي جاءت به إليه. وعلى عكس المستبد، يقيم الطاغية سلطته على اللامساواة والقسر، وذلك بأساليب مختلفة، منها المكر، الدهاء، العنف والقوة الغاشمة، وعلى عكس المستبد أيضاً، فإن الطاغية يفرض نظام حكمه، بطريقة غادرة ومخادعة تُفاجئ ضحاياه! (١)

ولقد كان هذا النوع من الإسراف قد تجاوز كل الحدود لأن الذي حمل لوائه فرعون وأمثاله ، هذا الطاغية الذي أله نفسه وأمر الناس بعبادته ، فاستخف قومه فأطاعوه فطغى وتجبر وأسرف في المعاصي وتكبر وقد صور المولى سبحانه إسرافه وتعنته في قوله تعالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يونس: ٨٣ والمعنى فما آمن لموسى عند مبدأ أمره إلا أولاد من أولاد قومه من بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفا من فرعون إلا طائفة من شبانهم ، وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به ، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسيا وخازنه وزوجته وماشطته " وقوله : " على خوف من فرعون " أي مع خوف منهم ، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء أو على أن المراد بفرعون آله .وقوله : " إنه كان من المسرفين " أي في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء .(٢)

---

١)- الكواكبي ، عبد الرحمن "طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد" ص ٦٧ بتصرف .

٢)- البيضاوي ، القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر " انوار التنزيل واسرار التأويل " ٤٤٤/١ .وانظر : عنبر ، محمود هاشم (مرجع سابق) الاسراف في القران الكريم دراسة موضوعية – ص ٢١ وما بعدها .

الخاتمة : وفيها نتائج البحث وتوصياته

أولا : نتائج البحث .

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعد:

فبعد وضع اللبنات الأخيرة من هذا البحث المبارك نكون قد وصلنا الى النتائج التالية :

١- إن مفهوم التغيير الحضاري مفهوم شامل ومتعدد لكل مناحي التنمية والاصلاح الاجتماعي ، ويقصد به : انتقال الحال والسلوك أو تبديلهما من الأسوء إلى الأحسن ، وهو يمثل القاعدة الأساس والإطار المرجعي لكل حركة أو سلوك يدور في بوتقة الاصلاح والتغيير .

٢- الاسراف بكافة معانيه اللغوية وحدوده الاصطلاحية لا ينحصر في الأكل أو الشرب أو في الأمور الاقتصادية فحسب بل هو مفهوم واسع ومعنى جامع يشمل كل عمل غير متوازن وبلا مبرر وفيه تجاوز عن الحد الطبيعي في شتى مناحي الدوائر الحياتية .

٣- حد الاسراف على مستوى الفرد والذي بتجاوزه يتحقق معنى الإسراف هو حد الاستواء والاعتدال (الحد الوسط) والمرجع في معرفته باعتباره حقيقة لغوية هو المصاديق العرفية . أما على المستوى المجتمعي فيلاحظ مفهوم الاسراف عند غياب العدالة وعدم المساواة ، ويصبح المال دولة بين الأغنياء دون ما عداهم .

٤- من معالم الاقتصاد الاسلامي والدرع الواقية من مغبة الإسراف الالتزام بسلم الأولويات الاسلامية (الضروريات – الحاجيات – التحسينيات) .

٥- نقطة الانطلاق والنهوض الحضاري تبدأ من النفس البشرية في ظل العمل بمقومات النهوض الحضاري وتشمل القيم الروحية وعلى رأسها الإيمان بالله تعالى وإفراده بالعبادة ، وقيم إقامة الحق والعدل بين الناس ..الخ ،والعكس بالعكس ؛ فغياب الإيمان وحضور الشرك والتمحل في غياهب الظلم والترف والتحلل الخلقي لاشك يسبب الانهيار والدمار الحضاري .

٦- الطبيعة الانسانية في ضوء المنهج الاسلامي طبيعة متكاملة ومتوازنة لا يطغى فيها جانب على آخر ومن ثم فقد رسم القرآن الكريم والسنة النبوية الحد الوسط الذي بتجاوزه يتحقق الاسراف في كافة جوانبها الجسدية والروحية والعقلية والأخلاقية .

٧- إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي تعد أرضية خصبة لانتشار الرذائل والذنوب والموبقات مما يؤدي إلى اعتياد الناس على الفواحش .

٨- إن في غياب تطبيق الحدود والتعازير الإسلامية، تفاقما للجرائم ومن ثم يصعب السيطرة عليها، و وتهدد النفس والأموال والثمرات ويحدث الفساد الشامل للمجتمع.

٩- من أخطر صور الاسراف على المستوى المجتمعي ممارسة نظامي الاستبداد والطغيان على كافة الأصعدة والمجالات.

١٠- الوفاء بالعهد خلق يقتضيه الإنصاف والصدق، وتوجبه المروءة وكرم النفس، وتحتمه الرجولة ، وغيابه من أخطر مظاهر الاسراف في المجتمع .

توصيات البحث :

١- الاسراف يعد أزمة أخلاقية ومنحنى حضاريا خطيرا ؛ لذا أهيب بالباحثين في كافة المؤسسات العلمية والدعوية والإعلامية في مختلف البلدان الإسلامية أن يولوا اهتمامهم بمزيد من البحث والدراسة ومعالجة هذا الموضوع وخاصة في الجانب التطبيقي حيث إن مفهومه ما زال ملتبسا على بعض الأشخاص .

٢- تفاديا لمزيد من الانهيار الحضاري في الأمة ؛ أهيب بالمسؤولين والرعاة – كل فيما يخصه وفيما يستطيعه – ضرورة وسرعة اتخاذ إجراءات وتدابير وقائية وعلاجية للإسراف وأهله .

مراجع البحث

١- إبراهيم ، خيري على " المواد الاجتماعية في مناهج التعليم بين النظرية والتطبيق" الإسكندرية، المكتبة التربوية ، سنة ١٩٩٦م.

٢- ابن الأثير " علي بن أبي الكرم بن محمد "جامع الأصول من أحاديث الرسول، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١ ، سنة ١٤٠٠، ١٩٨٠م.

٣- ابن الأثير،" علي بن أبي الكرم بن محمد " النهاية في غريب الحديث "القاهرة ط دار إحياء التراث العربي ط١ ١٤٢٢ هـ

٤- ابن تيمية ، أحمد محمد الحراني "الفتاوى الكبرى "جمع عبد الرحمن العاصمي ط دار مكتبة ابن تيمية د . ت

٥- ابن تيمية ، أحمد محمد الحراني :اقتضاء الصراط المستقيم القاهرة ط دار الحديث ١٩٩٩ م

٦- ابن تيمية، أحمد بن محمد " السياسة الشرعية " بيروت، دار الكتب العربية". (د.ت).

٧- ابن عاشور ،محمد الطاهر "التحرير والتنوير" تونس ط دار السداد التونسية ١٩٨٤ م

٨- ابن فارس، أحمد زكريا " معجم مقاييس اللغة"، بيروت، ط دار الفكر،(د.ت).

٩- ابن قيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب"إعلام الموقعين عن رب العالمين " بيروت ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ م

١٠- ابن منظور، جمال الدين " لسان العرب " بيروت – دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٩٥م.

١١- أبو العينين ، علي " فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم" القاهرة ، دار الفكر، ، ١٩٨٠م .

١٢- الأصفهاني الراغب : المفردات في غريب القرآن، ت وائل عبد الرحمن، عمان، المكتبية التوفيقية، ٢٠٠٢م.

١٣- الأمين ، عبد الله محمد " الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية — دراسة مقارنة " قطر : كتاب الأمة ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ،العدد ١٥٣ محرم ١٤٣٤ هـ

١٤- أنيس، إبراهيم" المعجم الوسيط، بيروت، دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٩٩م.
١٥- باسم بن فيصل " التكفير في ضوء السنة النبوية،" بحث مقدم لجائزة الأمير / نايف بن عبد العزيز العالمية للسنة النبوية، والدراسات الإسلامية المعاصرة، الدورة الثانية، ط١ سنة ١٤٢٧هـ.
١٦- باقارش، صالح سالم،" مشكلات وقضايا تربوية معاصرة" حائل ، دار الأندلس للنشر، ط١ ، سنة ١٤١٧هـ.
١٧- البخاري، محمد بن إسماعيل " الكتب الستة - صحيح البخاري "- اعتنى به وزوده بالحكم على الأحاديث ودققه / رائد صبري أبي علفة ، الرياض ، ط: مكتبة الرشد، ، ط:١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
١٨- بكار ،عبد الكريم" فصول في التفكير الموضوعي"، سوريا ، دار القلم ، ٢٠٠٥م . ط٤
١٩- بكار، عبد الكريم " مدخل إلى التنمية المتكاملة رؤية إسلامية"، دار القلم، دمشق ١٤٢٠هـ.
٢٠- بنت الشاطئ ، عائشة عبد الرحمن " الشخصية الإسلامية" ، بيروت ، ط: دار العلم للملايين، ، ١٩٨٦م .، ط٤
٢١- البهي ، محمد " الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي"، بيروت، ط دار الفكر سنة ١٩٧٣م.
٢٢- البهي، محمد " تحديد المفاهيم أولاً" ، مطبعة الأزهر بالقاهرة، (د.ت).
٢٣- البوطي ، محمد سعيد " أبحاث في القمة " جدة ، مركز الراية للتنمية الفكرية، سنة ٢٠٠٤.
٢٤- البوطي، د. محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن بيروت ، داالفكر المعاصر ١٩٩١ م
٢٥- بيت التمويل الكويتى : " الضوابط الشرعية لمسيرة المصارف الإسلامية " ، بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث للمصرف الإسلامى ، دبى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م
٢٦- التركي، عبد الله بن عبد المحسن "تجديد الفكر الإسلامي" بحث منهج تجديد الفكر الإسلامي"، المغرب العربي، ورقة

عمل مقدمة للندوة الدولية التي تنظمها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية في ٤-٥ شعبان سنة ١٤٠٧هـ.

٢٧- الترمذي ، محمد بن عيسى " سنن الترمذي" اعتنى به وزوده بالحكم على الأحاديث ودققه رائد صبري أبي علفة، الرياض، ط: مكتبة الرشد، ، ط: ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

٢٨- التهانوي ، محمد علي : كشاف اصطلاحات العلوم ، بيروت ، ط: دار الكتب العلمية، ، ٢٠٠٦م. ط٢

٢٩- الجبير ، هاني " معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية" ، الرياض ، مجلة البيان، سلسلة تصدر عن مركز البحوث والدراسات ، ، العدد ١٠٨ – ١٤٢٩هـ .

٣٠- الجرجاني، علي بن محمد" التعريفات" تونس، السداد التونسية، ط١ ، سنة ١٩٧١م.

٣١- جروان ، فتحي " الابداع ،مفهومه ،ومعاييره ومكوناته وخصائصه " الاردن ،عمان ط دار الفكر ٢٠٠٢ م

٣٢- الجوزية، ابن القيم " شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" القاهرة ط دار الجيل للطباعة د . ت

٣٣- الجوهري ، إسماعيل : الصحاح تاج اللغة، تحقيق أحمد عطا : ط المكتب الإسلامي سنة ١٤٠٢هـ.

٣٤- الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري" المستدرك" بيروت، ط دار الفكر (د.ت).

٣٥- الحدري ،عبد الله " منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم "، السعودية / مكة المكرمة ط دار عالم الفوائد الأولى ٢٠٠٠ م

٣٦- خاطر، محمد " أثر تطبيق الحدود في المجتمع،" أحد بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض سنة ١٣٩٦هـ، المجلس العلمي لجامعة الإمام ١٤٠٤هـ.

٣٧- الخطابي ، محمد " تجديد الفكر الإسلامي " غاياته وميادينه"، المغرب العربي، ورقة عمل مقدمة للندوة الدولية التي تنظمها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية في ٤-٥ شعبان سنة ١٤٠٧هـ.

٣٨- خليل ، عماد الدين : دراسات في السيرة مصر – المنصورة ط دار الوفاء د . ت

٣٩- الخميس ، السيد سلامة " التربية وتحديث الإنسان العربي"، القاهرة، ط عالم الكتب، سنة ١٩٨٨.
٤٠- الخياط ، محمد جميل " المبادئ والقيم في التربية الإسلامية"،مكة المكرمة ، مركز البحوث التربوية والنفسية ، جامعة أم القرآن مكة المكرمة ١٤١٦هـ .
٤١- الذهبي ، محمد " سير أعلام النبلاء" ، بيروت ط: المكتب الإسلامي، د.ت .
٤٢- الرازي ، محمد فخر الدين "مفاتيح الغيب "القاهرة ط الإمام ١٣٩٩ هـ الأولى
٤٣- الرحماني ، محمد " الاسراف على ضوء الشريعة " مقال على شبكة الانترنت في موقع الشبكة العالمية لآل البيت : http://www.ahl-ul-bayt.org/ar.php/page
٤٤- الرفاعي" عبد الله" مراجعات في فقه الواقع السياسي و الفكري، على ضوء الكتاب والسنة، الرياض ، ط: دار المعراج الدولية ، ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
٤٥- الزمخشري ،محمود بن جار الله "الكشاف"وبهامشه الإنصاف لابن المنير القاهرة المكتبة المصرية د.ت
٤٦- زمزمي ،يحي محمد حسن :الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة السعودية ط دار المعالي ط٣ ٢٠٠٧ م
٤٧- سابق ، السيد " إسلامنا " بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨١ م
٤٨- سالم ، هدايت " مشكلات في طريق النهوض"، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، ٢٠٠٢م.
٤٩- السامرائي، نعمان"نحن والحضارة والشهود "، قطر،وزارة الأوقاف. كتاب الأمة جـ١ العدد ٨٠ ذو القعدة ١٤٢١هـ
٥٠- السجستاني، سليمان بن الأشعث" سنن أبي داود "، اعتنى به وزوده بالحكم على الأحاديث ودققه رائد صبري أبي علفة ، الرياض ، ط: مكتبة الرشد،١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
٥١- السعدي ، الشيخ عبد الرحمن : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان السعودية –جدة ط المدني ١٩٨/٤

٥٢- سعيد، جودت "كتاب أبحاث في سنن التغيير في النفس والمجتمع "دمشق ط مطبعة زيد الانصاري موافقة وزارة الاعلام السوري رقم ٩٩٣٥ سنة ١٩٨٣ م .

٥٣- سليمان ،عصمت محمود " التكامل المعرفي وفق منظور قرآني –قراءة تحليلية لسورة الكهف " د.ت

٥٤- السيد ، عبد الحليم محمود " الإبداع والشخصية " القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ م

٥٥- الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى : الموافقات ، تحقيق محمد عبد القادر، ط المكتبة العصرية، بيروت ، ٢٠٠٣م.

٥٦- الشاطبي، أبي إسحاق " الاعتصام". بيروت، ط دار القلم للطباعة والنشر، ١٩٨٦م .

٥٧- **شحاتة** ،. **حسين حسين**: " اقتصاد البيت المسلم فى ضوء الشريعة الإسلامية " ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ١٩٨٧

٥٨- الشلبي، محمد " الإسلام وقضايا العصر". عمان ، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط١ سنة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٩- صالح ، عبدالله عبد الرحمن " المرشد في كتابة البحوث التربوية" ، مصر ، المنصورة ط مكتبة الإيمان ٢٠٠١ م.

٦٠- الصلابي، علي محمد " الوسطية في القرآن الكريم "، القاهرة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، ط١، سنة ٢٠٠٧م.

٦١- ضيف، شوقي " المعجم الوجيز"، القاهرة (مجمع اللغة العربية) وزارة التربية والتعليم، سنة ١٩٩٠م.

٦٢- طالب ، أحسن مبارك " الأسرة ودورها في وقاية أبنائها من الانحراف الفكري السعودية ، جامعة نايف للعلوم الأمنية ، المجلس التنسيقي العاشر مع جامعة طيبة، سنة ٢٠٠٤م.

٦٣- الطبري ، محمد بن جعفر جامع البيان القاهرة ط دار إحياء التراث العربي ١٤١١ هـ

٦٤- الطريقي ، عبدالله " مشكلة السرف في المجتمع المسلم " السعودية – الريا ض "ط ، وزارة الشؤون الاسلامية والدعوة والاوقاف ١٤٢٠ هـ

٦٥- عبادة ، عبد اللطيف "فقه التغيير عند مالك بن نبي " الجزائر : ط. دار عالم الافكارللنشر ٢٠٠٦

٦٦- العكبري، أبو البقاء، الكليات، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١ ١٩٧٩م،

٦٧- العلوي ، جمال الدين " تجديد الفكر الإسلامي"، ملاحظات أولية حول إشكالية تجديد الفكر الإسلامي، المغرب العربي، ورقة عمل مقدمة للندوة الدولية التي تنظمها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية في ٤-٥ شعبان سنة ١٤٠٧هـ.

٦٨- علي ، بدوى فهمى محمد : " الضوابط الإسلامية لحماية المستهلك " ، رسالة ماجستير ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

٦٩- عنبر ، محمود هاشم "الاسراف في ضوء القران الكريم دراسة موضوعية" بحث محكم ومنشور بالجامعة الاسلامية بمدينة عزة – بفلسطين- المجلد ١٩ العدد الاول عام ٢٠١١ م

٧٠- عثمان ،حامد محمد حامد" معايير الوسطية وضوابطها بين الواقع والتطلعات " السعودية- الرياض ،جامعة الملك سعود ، كرسيالأمير سلطان لأبحاث الوسطية والدراسات الاسلامية المعاصرة .١٤٣١ هـ .

٧١- العيلي، عبد الحكيم" الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام ، القاهرة، ط : دار الفكر العربي، ، ١٩٧٤م.

٧٢- الغزالي ، محمد : ركائز الإيمان ، دمشق ، دار القلم، ، ١٤٠٨هـ .
٧٣- الفرفور ، محمد عبد اللطيف : خصائص الفكر الإسلامي، سوريا، دار المكتبي سنة ٢٠٠٢م.
٧٤- الفرفور، محمد عبد اللطيف " ذخائر الفكر الإسلامي" سوريا، ط دار المكتبي، سنة ٢٠٠٢م.
٧٥- الفيومي، أحمد بن محمد المقرئ، المصباح المنير، سوريا ، دار الفكر، سنة ١٩٨٥م، ٢١٥،.
٧٦- القاسمي ، جمال الدين " محاسن التأويل" ، بيروت ، ط دار العلم للملايين، (د-ت)
٧٧- القرطبي ،محمد بن أحمد" الجامع لأحكام القرآن" ،القاهرة دار الكتب العصرية ط ١٤ ١٩٣٤ م
٧٨- القزويني ، محمد بن يزيد " سنن ابن ماجه" اعتنى به وزوده بالحكم على الأحاديث ودققه رائد صبري أبي علفة ، الرياض، ط: مكتبة الرشد،١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
٧٩- محمود، جمال الدين محمد" قضايا معاصرة، في الدعوة "، القاهرة ، وزارة الأوقاف ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ، سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
٨٠- محمود، أحمد فؤاد " أضواء على الثقافة الإسلامية". الرياض، اشبليا للنشر والتوزيع، ط١ سنة ٢٠٠٠م.
٨١- المدرسي ، السيد محمد " الحضارة الاسلامية آفاق وتطلعات " على أرفف المكتبة الخاصة لسماحة الشيخ المدرسي في موقعه الخاص : http://almodarresi.com/books
٨٢- مرسى ، محمد منير " فلسفة التربية واتجاهاتها ومدارسها "القاهرة ، ط: عالم الكتب ، ١٤٠٢هـ .
٨٣- المصري ، د/ محمد أمين " المسئولية " بيروت ، ط: دار كنوز اشبيليا ، ، ط١، ٢٠٠٢م
٨٤- الموسوي ، محمود " رؤية قرآنية حول مسار الحضارات" بحث منشور في مجلة البصائر- البحرين وفي موقع : www.iicss.iq/files/investigations

٨٥- الميداني، عبد الرحمن حبنكة " الثقافة الإسلامي" مكة المكرمة، ط جامعة أم القرى، كتاب جامعي، ص ١٨٨ ، ١٩٩.

٨٦- الميمان، بدرية صالح عبدالرحمن " نحو تأصيل إسلامي لمفهومي التربية وأهدافها " ، السعودية، دار عالم الكتب بالسعودية، ٢٠٠٢م.

٨٧- النبهان، فاروق " تجديد الفكر الإسلامي"، المغرب العربي، ورقة عمل مقدمة للندوة الدولية التي تنظمها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية في ٤-٥ شعبان سنة ١٤٠٧هـ.

٨٨- نبي، مالك بن، مشكلات الحضارة.. تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، دار الفكر دمشق سورية، ١١٢٩ ه ١٩٩٩ م

٨٩- النراقي ، احمد محمد مهدي " عوائد الأيام " إيران ،ط مكتب الاعلام الاسلامي ، ط ١٤١٧ هـ

٩٠- النسائي ، أحمد بن شعيب : سنن النسائي، للإمام اعتنى به وزوده بالحكم على الأحاديث ودققه رائد صبري أبي علفة، الرياض ط: مكتبة الرشد، ،، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

٩١- نوفل، محمد نبيل " دراسات في الفكر التربوي المعاصر" القاهرة ، ط دار الأنجلو المصرية، سنة ١٩٨٥م.

٩٢- النيسابوري، مسلم بن الحجاج " صحيح مسلم"، الكتب الستة، الرياض، مكتبة الرشد، ط١ ، ١٤٢٦-٢٠٠٥م.

٩٣- يالجن ، مقداد " علم الأخلاق الاسلامية " الرياض ط، دار عالم الكتب للطباعة والنشر ١٤٣١ هـ ١٩٩٣ م